

أين يتجه العراق؟ دروس من البصرة

تقرير الشرق الأوسط رقم 67 – 25 حزيران (يونيو) 2007

جدول المحتويات

i	ملخص تنفيذي وتوصيات
1	1. صفات مميزة
1	أ. التنوع
5	ب. النزعة الجنوبية
9	ت. التدخل الأجنبي
12	2. النفط والمليشيات والنزاع على الموارد
14	أ. تفويض الدولة
19	ب. محاصرة الدولة
22	3. عملية سنباد
24	4. خاتمة
	الملاحق:
26	الملحق أ خارطة العراق

أين يتجه العراق؟ دروس من البصرة

ملخص تنفيذي وتوصيات

مؤكداً، ففي فترة أيلول/سبتمبر 2006 – آذار/مارس 2007، حاولت عملية سنياد طرد الميليشيات وتسليم الأمن في المدينة إلى قوات أمن عراقية قوية مشكلة حديثاً، إلى جانب إطلاق عملية إعادة البناء الاقتصادي. وقد تراجعت الجريمة والاعتقالات السياسية وأعمال القتل الطائفي نوعاً ما (هذا بالمقارنة مع أماكن أخرى من البلاد طبعاً) بعد أن كانت منفلة من عقابها عام 2006؛ وساد هدوء نسبي. أما في الواقع، فقد كان هذا الهدوء ظاهرياً وسريع الزوال في أن معاً. ففي آذار/مارس - نيسان/أبريل 2007، عادت التوترات السياسية المتجددة لتهدد استقرار المدينة مرةً أخرى. كما أفضت هجمات عنيفة ضد القوات البريطانية إلى انسحابها من الشوارع فعلياً وعتصامها بمعسكرات لا تتفك تزداد عزلة. ولا ينظر سكان البصرة، ولا عناصر الميليشيا فيها، إلى ذلك بصفته انسحاباً منظماً، بل بصفته هزيمة مخزية. واليوم، تخضع المدينة لسيطرة ميليشيات تبدو أكثر من أي وقت مضى قوية وقادرة على العمل من غير عائق.

ومهما يكن التقدم الذي حدث فهو لا يستطیع إخفاء أبرز الإخفاقات قاطبة: عدم القدرة على إقامة جهاز حكم شرعي فاعل في المحافظة يستطیع إعادة توزيع الموارد وفرض احترام حكم القانون وضمان الانتقال السلمي على المستوى المحلي. وما زالت الحلبة السياسية في البصرة في قبضة جهات منغمسة في منافسة دموية على الموارد تؤدي بالقلّة الباقية من مؤسسات تلك المحافظة وتقرض حكم هذه الجهات عنوةً. وما من خيار أمام السكان إلا التماس الحماية لدى واحدٍ من المعسكرات المهيمنة. ولا تعكس فترات الاستقرار التي تمر على البصرة قدراً أكبر من وجود سلطة حاكمة بقدر ما تعكس توتراً لحظياً (هشاً) للمصالح، أو توازناً للربح، بين الميليشيات المتنافسة. ثم تعود النزاعات والاشتباكات إلى الظهور على نحو لا سبيل إلى تقاويه. ويمكن لأية حوادث تبدو تافهة أن تشعل فتيل دورة كاملة من العنف الانتقامي. وقد صارت العملية السياسية، المصممة أصلاً من أجل تهدئة المنافسة وضمان توزيع السلطة والمواد على نحو غير عنيف، منبعاً لنزاعاتٍ حادةٍ غالباً ما تتخذ شكلاً وحشياً.

إن البصرة حالة عيانية لأشكال العنف المتعددة والمتكاثرة في العراق. وغالباً ما لا يكون لهذه الأشكال كبير علاقةٍ بالطائفية أو بمقاومة الاحتلال. بل هي تتعلق بإساءة استخدام منهجية للمؤسسات السياسية، وبالاعتقالات السياسية، وبحالات التآر العشائرية، وبلجان الأمن الأهلية في الأحياء، وبفرض الأخلاقيات الاجتماعية، إلى جانب ظهور مافيات إجرامية يزداد تدخلها مع الجهات السياسية الفاعلة. فإذا تراجعت مصادر العنف

في خضم التركيز الإعلامي والعسكري على بغداد، يجري إهمال مدينة عراقية كبرى هي البصرة. على أن تجربة البصرة تحمل دروساً هامة فيما يخص العاصمة والبلاد كلها على حد سواء. فقد نفذت قوات التحالف خطة أمنية هناك (وهي عملية سنياد) التي تشبه فورة الأعمال العسكرية الجارية في بغداد الآن من وجوه كثيرة. فما يطلق عليه القادة العسكريون الأمريكيون الآن تعبير "التنظيف، والسيطرة، والبناء"، كان نظراً لهم البريطانيون يسمونه "التنظيف، والسيطرة، وإعادة البناء المدني". وكما هي الحال في العاصمة، كان الهدف المفترض هو تمهيد الطريق أمام تولي القوات العراقية مقاليد الأمور. لكن البصرة بعيدة جداً عن أن تكون مثلاً يحتذى، بل هي مثلاً لما يتعين العمل على تجنبه. فمع تجدد العنف وعدم الاستقرار، تكشف البصرة عن مزلق عملية انتقالية أفضت إلى انهيار جهاز الدولة وفشلت في بناء مؤسسات شرعية. كما أن القتال الشرس الجاري بين فصائل الشيعة يثبت أيضاً خطأ النظرة التبسيطية إلى العراق على أنه ينقسم انقساماً واضحاً إلى مجموعتين متجانستين ثلاث.

إن قلة الاهتمام بأمر البصرة أمر مفهوم. إذ يسود اعتقاد مفاده أن مستقبل العراق معتمداً على بغداد؛ كما تجري معظم أعمال التفجير الكبيرة في وسط البلاد بعيداً جداً عن هذه المدينة الجنوبية. ويلقى المراقبون الذين اعتادوا على آليات العاصمة صعوبة في فهم آليات البصرة، مما يميل بهم إلى الإقلال من أهميتها. أخيراً، ولأن القوات الأمريكية لا تشارك مباشرة في البصرة، فإن التغطية الإعلامية مقتصرة على الإعلام العربي والبريطاني من ناحية، وهي مرغمة على منافسة أخبار العنف الفظيع الذي يمزق وسط البلاد من ناحية أخرى.

لكن من الخطأ إهمال البصرة. فهي ثاني مدينة في البلاد؛ وهي أغنى المناطق بالنفط. كما أن محافظة البصرة هي المحافظة الوحيدة التي تملك منفذاً على البحر؛ مما يجعلها عاصمة البلاد الاقتصادية بحكم الأمر الواقع، وكذلك مغنماً سياسياً كبيراً بالنسبة للقوى السياسية المحلية الفاعلة. وهذه المنطقة المحصورة بين إيران وملكيات الخليج تتمتع بأهمية استراتيجية، فهي تقع عند تلاقي العالمين العربي والفارسي. أما من الناحية الاجتماعية، فقد تشكلت هوية البصرة أساساً بالتعارض لا مع العاصمة فقط، بل مع بقية مدن الجنوب الكبرى أيضاً كالنجف وكربلاء. ولهذه الأسباب، يكون من الخطأ تجاهل البصرة أو دمجها في جنوبٍ شيعي لا يمتاز بمُخيل.

من الناحية الظاهرية، اعتبرت خطة البصرة الأمنية نجاحاً

والنزاع الأخرى (كالعنف الطائفي والقتال ضد قوات التحالف)، فلا بد أن يظل الاهتمام منصّباً على أن مآل البصرة سوف يتكرر في أنحاء البلاد كلها على سوية أكبر حجماً وأكثر فوضى وخطراً.

والدروس واضحة. فالعنف في العراق متعدد الأوجه. وليست الطائفية إلا واحداً من مصادره. وينتج عن هذا أن تقسيم البلاد وفق خطوط مذهبية وإثنية يفترض أنها راسخة متجانسة ليس بالإجابة السليمة على الوضع. وينتج أيضاً أن إعادة بناء الدولة ومعالجة أمر الميليشيات وفرض حكم القانون أمور غير ممكنة من غير مواجهة مع الأطراف التي تسيطر على العملية السياسية حالياً ومن غير تشكيل تركيبة سياسية جديدة تفوق التركيب الحالية اتساعاً إلى حد كبير.

إن العراق في لجة حرب أهلية الآن. لكنه أصبح، قبل ذلك وبما يتجاوزه أيضاً، دولة منهاره. إنه بلدٌ تعرضت مؤسساته للإلغاء، ومعها كل ما يدل على اللحمة الوطنية. وهذا هو ما يجعل العنف (جميع أشكال العنف: الطائفي والمقاوم لقوات التحالف، والسياسي، والإجرامي، وغيره) أمراً ممكناً، بل أمراً ضرورياً بالنسبة لكثير من الأطراف. إن التوصل إلى حلٍّ للمواجهة بين العرب السنة والشيعه والأكراد واحده من الأولويات. لكن بناء دولة فاعلة تتمتع بالشرعية أولوية أيضاً لا تقل عن سابقتها إلحاحاً أو أهمية أو مشقة.

دمشق/عمان/بروكسل، 25 حزيران/يونيو 2007

أين يتجه العراق؟ دروس من البصرة

1 صفات مميزة

أ) التنوع

السعدون التي تغلب على اتحاد عشائر المنتفق. وبالنتيجة، صار المذهب الغالب ضمن التركيبة العشائرية هو المذهب الشيعي مع جيوب عميقة الجذور من السنة كما في الزبير إلى الجنوب الغربي من البصرة.

وخلال القرن التاسع عشر تزايد دور المدينة بصفتها مركزاً إدارياً واجتذبت أعداداً كبيرة من الموظفين من بقية أرجاء البلاد. وكان معظم هؤلاء من البرجوازية السنية بالنظر إلى الميل الذي كانت الدولة العثمانية تفضله. ثم جاء اكتشاف النفط وتحديث الدولة في القرن العشرين ليزيد نمو أعداد البيروقراطيين والعمال المتخصصين والمعلمين والمهندسين القادمين من بغداد وغيرها. وفي أواسط القرن انبثقت في المدينة طبقة وسطى مدنيّة متأثرة بالغرب، حتى قبل تطور الصناعة النفطية. ويتحدث أستاذ جامعي عن هذه الفترة فيقول:

"كان زمناً مجيداً. وكان سكان البصرة منفتحون على ثقافاتٍ مختلفة مع حماية ثقافتهم في الوقت عينه. ولطالما كان الطعام والموسيقى متنوعين هنا. وكنا نذهب إلى المسرح أيضاً. كان كل شيء متحضراً وحديثاً. وكانت فرق السيرك الأجنبية وبرك السباحة والملاهي تنتشر على امتداد الشاطئ. وكنا نستمتع بركوب الزوارق. لكن معظم المتعلمين والفنانين غادروا المدينة بعد تلك الفترة المباركة." TP⁴PT

ومنذ أوائل الثلاثينات حتى الانقلاب الأول على الملكية عام 1958، كان قطاع الزراعة يعاني أزمة اقتصادية حادة أدت إلى هجرة ريفية كبيرة. وفي أعقاب حرب الخليج عام 1991، أدى قرار النظام السابق بتجفيف الأهوار (التي كانت تاريخياً ملاذاً آمناً لعناصر المعارضة والفارين من الجيش والمجرمين) ونقل سكانها قصراً إلى موجة جماعية جديدة من الهجرة إلى المدن. وأدت الموجتان معاً إلى جلب سكان جدد إلى المدينة مما أفضى إلى توتراتٍ بينهم وبين البرجوازية المحلية المستقرة. وكان المهاجرون ذوو الأصول البدوية يميلون إلى السكن في أحياء على محيط المدينة القديمة كحي الجمهورية والأعظمية والحسيان والحيانية والخمسة أميال والتومة.

وعقب الإطاحة بالنظام القديم عام 2003، أصبحت خصائص هذه المناطق المأهولة حديثاً أكثر وضوحاً. وعلى نحو خاص، صارت منطقة الحيانية (التي تتميز بتاريخ وتكوين شديدي الشبه بمدينة الصدر في بغداد) أحد معاقل التيار الصدري في

البصرة مدينةً تعددية متنوعة اجتماعياً. ورغم غلبة الشيعة على سكانها، فإن فيها جماعات كبيرة من السنة (عرباً وأكراداً)، والمسيحيين (معظمهم من الكلدان والآشوريين والأرمن)، والصابئة المندائيين، وهم طائفة غنوصية تعود إلى ما قبل الإسلام. TP¹PT ويمكن الإحساس بأثر هذه الأقليات في كثير من الأحياء كحي العشار وسوق الشيخ. وبما أن البصرة ميناء العراق، فقد اجتذبت جملة واسعة من التجار (من بينهم عائلات الخضير والصالح وغاربيان وأصفر والنقيب) لهم علاقات وثيقة بالعالم الخارجي؛ كما تمتعت المدينة تقليدياً بسوية عالية من التسامح المتبادل بين مكوناتها. واعتباراً من القرن الثامن، ضمت المدينة أيضاً أقلية من السود (الزنج) مما زاد غنى التنوع فيها. وكان لتعددية البصرة النشطة (التي تتجلى عبر تشكيلة واسعة من الشعر والمسرح والغناء الذي يحمل تأثيرات أفريقية). أثر قوي في صياغة الثقافة قبل إنشاء العراق الحديث وبعده.

وقبل اندلاع العنف الطائفي في البلاد كلها عام 2006، كان سكان البصرة يتباهون بعالميتهم. ويقول رئيس جامعة البصرة:

"لطالما أراد سكان البصرة العيش في سلام وقبول الآخر بصرف النظر عن هويته الطائفية أو الدينية. وفي إحدى اللحظات، كان لدينا أقلية يهودية كبيرة أيضاً. ونحن معتادون على العيش في هذه التنوع. وقد ألف الناس دائماً العيش مع الأجانب ومع أبناء دياناتٍ أخرى. ولم تعرف البصرة أبداً العداء بين المسيحيين واليهود والمسلمين. بل كانوا جميعاً أصحاب تفكير منفتح." TP²PT

وتساهم عوامل أخرى في تعددية المدينة وجوارها القريب. فمن جهة تاريخية، كانت منطقة البصرة (وجنوب العراق عامة) مأهولة بعشائر سنية مستقرة أو بدوية، رغم إقامة أقلياتٍ شيعية في المدينة ومحيطها، وخاصة في قضاء "القرنة". وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تحولت معظم عشائر السنة المستقرة إلى المذهب الشيعي. TP³PT لكن ثمة استثناءات أبرزها عشيرة

TP¹PT - على حد علمنا، لا تتوفر معلومات موثوقة عن تركيبة سكان البصرة.

TP²PT - مقابلة كرايسز جروب مع رئيس جامعة البصرة، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP³PT - إسحاق نقاش، "تحول عشائر العراق إلى مذهب الشيعة"، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، العدد 3، 1994.

TP⁴PT - مقابلة كرايسز جروب مع أستاذ جامعي من البصرة، البصرة، آذار/مارس 2005.

وعلى خلاف معظم شيعة العراق الذين يختارون "مرجعهم" من بين كبار رجال الدين في النجف وكربلاء العراقيين أو في قم ومشهد الإيرانيين، لا تعترف الشيعة بأية سلطة لأية آية الله بل هم يتبعون زعيمهم علي الموسوي، وهو زعيم الأقليات الشيعية في كربلاء وإيران والخليج. ويتجنب الشيعة أي دور سياسي إذ يقبلون شرعية السلطة الدنيوية. TP⁹PT ويؤدي ثراؤهم المستند إلى الزراعة والملكية العقارية والمساهمات الطوعية المقدمة إلى الموسوي إلى مزيد من تعزيز مكانتهم في المدينة رغم التحيز الباقي ضدهم. TP¹⁰PT

وبصرف النظر عن التوترات القائمة، فإن البصرة تفتخر منذ زمن بعيد بتنوعها الاجتماعي والديني والثقافي. لكن ذلك تغير كثيراً نتيجة الأسلمة المتزايدة في المدينة ونتيجة تنامي النزعة الطائفية لدى طبقتها السياسية. وأما تقاليد التسامح والانفتاح العقلي (وهي لا تقتصر على برجوازية المدينة وسكانها المتحضرين حديثاً، TP¹¹PT بل تشمل الدوائر الدينية أيضاً)، TP¹²PT فقد طغى عليها صعود الحركات الإسلامية. وفور سقوط نظام صدام حسين تقريباً، أقامت هذه الحركات وجوداً لنفسها في الجامعات والمستشفيات وصارت لها الغلبة عبر مزيج من العنف والتخويف. ومع انهيار الدولة، سعت الجماعات الإسلامية المسلحة إلى ملء الفراغ الأمني ومحاربة الجريمة، وراحت تتشدد في فرض معايير اجتماعية متشددة، لكنها راحت تساهم أيضاً في أشكال خفية من السلوك من قبيل تهريب النفط. TP¹³PT

المدينة. TP⁵PT ومع انهيار هيكلية المحافظة، تمتعت العشائر بدور سياسي متزايد الأهمية. وقام بعض زعمائها بتنظيم أنفسهم سياسياً من خلال الانضمام مثلاً إلى جمعية العراق الفيدرالي التي أقيمت في كانون الأول/ديسمبر 2004؛ TP⁶PT وفي انتخابات 2005، انضم كثيرٌ منهم إلى أحزابٍ موجودة أصلاً.

وأما العلاقات بين أهل البصرة القدامى وبين العشائر التي صارت حضرية في الأونة الأخيرة فهي متوترة وتتسم بطابع التحيز والتعالي. ويعتبر أبناء العشائر غير قادرين على تمثيل حياة الحضر؛ وهم متهمون بالجريمة ومختلف أنواع الرذائل. وعقب الإطاحة بحكم صدام، صارت إحدى العشائر (الغرامشة) رمزاً لمساوئ البدو جميعاً. ويقول أحد صحفيي البصرة:

"نزع الغرامشة من الأهوار ولجأوا إلى المدينة عندما دمر صدام حسين بيئتهم التقليدية. وقد واجهوا صعوبات حياة المدينة في ذلك الوقت. لم تكن لديهم مدارس ولا مستشفيات في الأهوار. ولم يكن بينهم من يحمل شهادة جامعية أو حرفة يعمل بها. وباختصار، مر هؤلاء بزم من عسب حتى اندمجوا في المدينة، وانغمس كثيرٌ منهم في السرقة والمشاجرات. وقام بعضهم بشراء القوارب بعد أن باعوا قطعانهم، وصاروا يتاجرون في السوق السوداء. ليس جميع الغرامشة على هذه الشاكلة طبعاً. فالواقع أن كثيراً منهم يتميزون باللطف والكرم. لكنهم يعانون من التحامل إزاء المعدان عامة [كلمة شاعت اليوم للإشارة إلى أهل الأهوار، وهي تدل على التخلف]." TP⁷PT

"المعصومين" الذين تعترف بهم الشيعة الإثنا عشرية. وللتعرف على الشيعة الإثني عشرية، انظر تقرير الشرق الأوسط رقم 37 "فهم الإسلاموية" الصادر عن كرايسز جروب في 2 آذار/مارس 2005، ص 19. TP⁹PT - من هنا، كانت معاملة نظام صدام حسين للشيعة متساهلة. ويعتبر مسجدهم الذي بني في فترة 1982 - 1997 خلال فترة القمع الشديد ضد المعارضة الشيعية واحداً من أكبر مساجد المدينة وأكثرها ظهوراً. ويتسع لنحو 12000 شخصاً. مقابلة كرايسز جروب مع زين الدين صالح الموسوي، الناطق باسم علي الموسوي، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP¹⁰PT - عادة ما يصف بقية شيعة البصرة الشيعة بأنهم ليسوا من الإثني عشرية. فيمزعزل عن الفوارق اللاهوتية، ثمة نظرية شائعة لدى أهل البصرة مفادها أن الشيعة (المعروفين محلياً باسم أولاد أمير أو باسم الحساوية) من أصول سعودية وليس عراقية. ومع أن هذا صحيح بالنسبة لمؤسس الجماعة، فما من شك في أن أتباعها في البصرة عراقيون. مقابلات كرايسز جروب مع عددٍ من البصريين، البصرة، 2006 - 2007.

TP¹¹PT - إن لدى عشائر الأهوار نمطاً خاصاً من التدين المرن نسبياً. وكان مشايخها يعارضون علناً الأسلمة المتزايدة للمشهد السياسي طالما كان بوسعهم ذلك؛ وذلك مثلاً من قبيل انتقاد دعم علي السيستاني اعتبار الشريعة مصدراً وحيداً للقانون. مقابلات كرايسز جروب مع زعماء عشائريين في البصرة، آذار/مارس 2005. ويقول أحدهم: "نريد حكومة علمانية فيدرالية متسامحة. ولسنا نريد دولة دينية. ونحن ضد فكرة الحزب الواحد أو حكم الشخص الواحد. لكننا لا نريد حكم الشريعة أيضاً. إننا نقبل الشريعة مرجعاً لا قاعدة رئيسية. وعلى المرء أن يحترم جميع البشر. وأنا مثلاً مؤيدٌ لحقوق المرأة". مقابلة كرايسز جروب، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP¹²PT - اشكتك بنت أحد كبار الشخصيات الدينية في المدينة من وحشية بعض الجماعات الإسلامية: "إن طريقة محاولتهم فرض قواعدهم أمرٌ سيء جداً. للإسلام دينٌ مسالم". مقابلة كرايسز جروب، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP¹³PT - مقابلات كرايسز جروب مع مهربي نطف يتدمرون من هذه المنافسة الجديدة، البصرة، تشرين الأول/أكتوبر 2003. ومن المعروف عن

وجماعة الشيعة في البصرة متنوعة في حد ذاتها. إذ تعيش أقلية كبيرة من الشيعة إلى جانب الميل الأصولي الغالب ضمن الإسلام الإثني عشري (وإليه ينتمي معظم كبار الشخصيات الدينية الشيعية في العراق كعلي السيستاني، والمرشد الأعلى في إيران علي خامنئي). TP⁸PT

TP⁵PT - انظر تقرير الشرق الأوسط رقم 55 الصادر عن كرايسز جروب، "مقتدى الصدر في العراق: مفسدٌ أم عامل استقرار؟"، 11 حزيران/يونيو 2006، ص 5. ويقال إن المدينة أصبحت مأوى لكثير من قادة التيار الصدري الهاربين من وطأة "الهجوم" في بغداد: "بما أن الأمريكان يضغطون علينا في بغداد، ونتيجة للخطة الأمنية، فرّ كثيرٌ من قادة جيش المهدي وجأوا إلى البصرة. وتعود أصول كثيرٍ منهم إلى ميسان أو البصرة في الجنوب. وقد جاؤوا مباشرة إلى الحيانية التي ينحدر سكانها من ميسان أيضاً. وبالاستفادة من خبرتهم ومساعدتهم، تمكنا من تنظيم عملنا على نحو أكثر فعالية. فهم أقوياء كما تعلم". مقابلة كرايسز جروب مع قائد محلي من جيش المهدي، البصرة، حزيران/يونيو 2007.

TP⁶PT - تضم جمعية العراق الفيدرالي شخصياتٍ محلية من أصول عشائرية وغير عشائرية. وهي تدعو إلى نوع من "الفيدرالية الإدارية"، أي إلى قدر أكبر من الاستقلالية الإدارية المحلية. مقابلة كرايسز جروب مع خمسة من زعماء العشائر الناشطين في جمعية العراق الفيدرالية، البصرة، آذار/مارس 2006.

TP⁷PT - مقابلة كرايسز جروب مع صحفي من البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP⁸PT - قام مؤسس المدرسة الشيعية أحمد الأحساني (توفي عام 1826) بوضع لاهوتٍ باطني يقول بأن إمام الجماعة بصفته واحداً من "الخلص" يتمتع بصلةٍ روحية مباشرة مع الإمام الغائب آخر الأئمة الإثني عشر

ذلك على مشهدٍ من الشرطة. وأما الفتاة التي جُلها العار فقتلت نفسها بعد فترةٍ بسيطة. TP¹⁸PT وعلى الرغم من الغضب الشديد الذي أثارته هذه الحادثة، لم يصب مرتكبيها أي عقاب. TP¹⁹PT بل إن طرح موضوع الأسلمة الاجتماعية والسياسية صار محظوراً في حد ذاته:

"إنه أمرٌ شديد الحساسية. ونحن غير قادرين على مناقشته علناً لأن الجميع خائفون. فإذا عبرت عن رأيي فسوف أتعرض لمشاكل حقيقية. وسوف يتهمني الإسلاميون بأنني لست مسلماً حقيقياً مع أنني مسلمٌ حقيقي. لقد أجبرت بناتي على ارتداء الحجاب؛ لكن الأمر أعمق من ذلك. كنت ذات مرة ألقى محاضرةً في موضوع الفساد في الجنوب والتلوث الناجم عن النفط. فجاء واحدٌ من هؤلاء الناس إلي واقترح وجوب أن أستعين بحراسة أمنية لأنني يمكن أن أستهدف. لقد كان في الواقع يبلغني بأن أبتعد عن إثارة كل ما يمس مصالحهم. لقد قتل بعض الأشخاص رغم وجود حرسٍ شخصي معهم. ويمكن أن يحدث هذا في أي مكان وفي أي وقت." TP²⁰PT

اشتد هذا الميل عام 2006 مع تصاعدٍ مأساوي في حوادث القتل. TP²¹PT وكان من بين الضحايا شخصياتٍ براغماتية علمانية (أساتذة جامعات وصحفيين ومدافعين عن حقوق الإنسان ونقابيين وشيوخ عيين ومتقنين). لكن أشخاصاً قتلوا أيضاً بسبب انتماهم الطائفي فقط. وقد تعرض السنة الذين يستهدفون تحت غطاء استئصال البعث إلى هجوم مركز بعد تفجير المسجد الشيعي في سامراء في شباط/فبراير 2006، وهو حدثٌ أثار موجة انتقامية في أنحاء البلاد كلها. TP²²PT ولأسبابٍ كثيرة، أجبر أفراد أقليباتٍ أخرى على النزوح، وخاصة الأقلية المسيحية. TP²³PT وأما زعماء العشائر الذين عارضوا زيادة

وقد أفضت الانتخابات البرلمانية والمحلية في كانون الثاني/يناير 2005 والتي كانت بعيدة كل البعد عن فتح الميدان السياسي إلى هيمنة الأحزاب الإسلامية، وخاصة التيار الصدري مثل حزب الفضيلة (حزبٌ نشأ عن التيار الصدري وأسس عام 2003 على يد الشيخ محمد اليعقوبي من النجف وصارت له قاعدة شعبية تتركز في البصرة)، والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق (تغير اسمه مؤخراً إلى المجلس الإسلامي العراقي الأعلى)، TP¹⁴PT وكذلك "نار الله" وهو حزبٌ محلي تماماً أقامه يوسف الموسوي.

"[في البصرة] شابت انتخابات كانون الثاني/يناير حوادث تخويف وعنف قبل الانتخابات، وكذلك حوادث تخويف وحشية بعدها... وقد زادت فصائل التيار الصدري والفصائل التابعة للمجلس الأعلى مثل فيلق بدر وثأر الله من عمليات التخويف ضد أساتذة الجامعة والنقابيين وغيرهم من الشخصيات العلمانية. وأجبر معظم العراقيين على الانضواء تحت مظلة الحماية الناجمة عن العضوية القسرية في هذه الأحزاب. وأما من حاولوا اتخاذ موقفٍ من ذلك فقد تعرضوا للتخويف، بل قتلوا أحياناً." TP¹⁵PT

ويعد الانتخابات عمّ الخوف المدينة. وسيطر الإسلاميون على مستشفياتها إلى حدٍ بعيد، ومع استثناءاتٍ بسيطة، صارت تتعرض إلى ضغطٍ شديدٍ متزايد. TP¹⁶PT وأجبرت طالبات الجامعة على وضع النقاب، مسلماتٍ كنّ أو مسيحيات. TP¹⁷PT وتمثل هذا المناخ القمعي في حادثةٍ مأساويةٍ ضرب فيها الصدريون امرأةً كانت تشارك في رحلةٍ طلابية، ومزقوا ملابسها، وأطلقوا النار على طالبين حاولوا التدخل فقتلوهما؛ وكل

أحد قادة الأحزاب الإسلامية الذي يزعم أنه قاد المقاومة ضد نظام صدام حسين أنه يمارس التهريب منذ زمن بعيد، وهو نشاطٌ يفترض وجود علاقات وثيقة برجال صدام المحليين.

TP¹⁴PT - في تصريح له في 11 أيار/مايو 2007، أعلن المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق أنه حذف كلمة "الثورة" من اسمه حتى يعكس الاسم ما يسميه المجلس وضعاً جديداً في العراق. الحياة، 12 أيار/مايو 2007. TP¹⁵PT - مايكل نايتس وإد ويليامز، "الهدوء قبل العاصفة: تجربة البريطانيين في جنوب العراق"، معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى، دراسة السياسات رقم 66، شباط/فبراير 2007، ص 27.

TP¹⁶PT - "البارحة أيضاً وصلتني رسالة من الصدريين عبر مدير عام المستشفى. وقد أثاروا من جديد مسألة معالجة الأطباء الذكور للمرضى الإناث. لقد أرسلوا يستدعونني إلى مقرهم. فأجبت بأن لا شأن لي بهم وبأنني موظف بحيث يجب إرسال أية استفسارات إلى المحافظة أو إلى وزارة الصحة. ومنذ ستة أشهر. حاولوا فرض قواعدهم في هذا المستشفى، لكنني منعتهم. ولو سمحت لهم لكانت ملصقات الصدر انتشرت على جميع الجدران. لكنهم يسيطرون على معظم المستشفيات الأخرى. بل اضطرت بعض المستشفيات إلى تغيير أسمائها أيضاً؛ فصار المستشفى التعليمي يدعى مستشفى الصدر." مقابلة كرايسز جروب مع مدير أحد المستشفيات، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP¹⁷PT - "ضغطوا على جميع طالباتي من أجل ارتداء النقاب. وهن خائفات. ويقول هؤلاء الناس إن على المسيحيات أن يتحجبن أيضاً. وقد بدأت اثنتان من صديقاتي الأمرين يرتدين الحجاب. وعندما رأيتهن قلت: 'كيف هذا، وكيف تستسلمان؟' فقالتا إنهما خائفتان. لقد تخليت عن ارتداء الأثواب القصيرة منذ زمن بعيد. مجتمعنا محافظٌ بطبيعة الحال. أما ارتداء الحجاب فأمر مختلفٌ تماماً." مقابلة كرايسز جروب مع أساتذة جامعية مسيحية بجامعة البصرة، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP¹⁸PT - مقابلات كرايسز جروب مع طلاب جامعيين، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP¹⁹PT - "إن حقيقة كون الجماعات الإسلامية تمسك بزمام المدينة أمرٌ مقلقٌ جداً. وأعتقد أننا سنضطر في النهاية إلى القتال حتى نخرجهم من حرم الجامعة. إن معظم الناس يمتنون هؤلاء المتدينين المتعصبين الشباب. وبعد حادثة الرحلة، اجتمع زعماء العشائر وأصدروا مذكرةً تعلن تأييدهم للطلاب وتدين العنف. لكن معظم الناس يخشون الصدريين. وليس الأمر لأنهم يملكون قدراً كبيراً من القوة. لكنهم يستطيعون القتل والتخويف. فعلى سبيل المثال، سمعنا أنهم قتلوا 12 حلاقاً في أرجاء البلاد لأنهم يحلقون الذقون. إن الإسلاميين يشيعون مناخاً من الخوف. ولم تنبئ السلطات ببنت شفة بعد حادثة الرحلة لأنهم خائفون أيضاً." مقابلة كرايسز جروب مع أستاذ جامعي من البصرة، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP²⁰PT - مقابلة كرايسز جروب مع باحث جامعي من البصرة، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP²¹PT - شهد عدد ضحايا حوادث القتل المبلغ عنهم تزايداً ثابتاً من 15 شخصاً في تشرين الثاني/نوفمبر 2005 إلى 30 في شباط/فبراير 2006 ثم إلى أكثر من 100 في الأشهر اللاحقة." تقرير تقييمي عن محافظة البصرة"، مفوضية الأمم المتحدة العليا للاجئين (UNHCR)، آب/أغسطس 2006، ص 8-9.

TP²²PT - انظر تقرير الشرق الأوسط رقم 52، كرايسز جروب، "أهي الحرب العراقية التالية؟ الطائفية والحرب الأهلية"، 27 شباط/فبراير 2006. TP²³PT - انظر نيويورك تايمز، 31 تموز/يوليو 2005؛ وانظر أيضاً "العنف الطائفي: الجماعات المتطرفة تقود مسار التهجير الداخلي في العراق"، مؤسسة بروكينغز، جامعة برن، مشروع دراسة التهجير الداخلي، تشرين الأول/أكتوبر 2006. ومع ذلك، فإن مسيحيي البصرة أحسن حالاً من

المباشرة، وخاصة بعد انقلاب 1968 [الذي أتى بحزب البعث إلى السلطة]. وصار كل شيء، المصانع والإدارة المحلية والخدمات الاجتماعية تحت سيطرة العاصمة. وصارت المخابرات حاضرة في كل مكان وعند ناصية كل شارع. وعشنا كما لو أننا تحت الاحتلال. لقد حاولوا تجزئة حياتنا إلى قطع صغيرة. ولم يقبلوا أن نمتلك هويتنا الخاصة". TP²⁸PT

ومع استثناءات معدودة فقط، كان القادة المحليون من مناطق أخرى في البلاد:

"لسنوات طويلة كان أهل البصرة عرضة للتجاهل في مدينتهم نفسها. ولم يكن أحدٌ من المسؤولين من هذه المدينة (لا المحافظ ولا قائد الشرطة ولا قائد المنطقة العسكرية ولا المسؤول عن الموانئ). كان الوضع غريباً. فالبصرة غنية، وفيها نفطٌ كثير، وزراعة، وموارد بحرية. لكنها لم تستفد من ذلك كله. فلو كان المحافظ من البصرة لكان خبيراً بالسكان المحليين ومهتماً بهم. لكن، دعني أعطيك مثلاً بسيطاً: في عام 1991، نشرت صحيفة الصباح أسماء مختلف المحافظين الذين تعاقبوا على البصرة حتى ذلك الوقت. من أصل 41 محافظاً، كان واحدٌ فقط من مدينة البصرة". TP²⁹PT

وأهل البصرة مقتنعون أيضاً بأن مؤسسات الدولة والأحزاب السياسية الشيعية الكبرى تفضل مراكز شيعية أخرى (في بغداد وكربلاء والنجف) على حساب مدينتهم. وذلك نتيجة تمييز شديد ضد الجنوبيين. TP³⁰PT ولا يعتقد أن إزالة النظام القديم أو نشوء العملية السياسية الجديدة قد أدى إلى تصحيح هذا الوضع. وما زال أهل المنطقة يرون أنهم معرضون للتجاهل والاستغلال. ويقول برلماني من البصرة:

"مازلنا نعاني رغم تحرير العراق. وبصرف النظر عن معاناتنا كلها، لا نستطيع التباهي بوزير واحد من البصرة. ومن بين 35 سفيراً عراقياً في أنحاء العالم، لا يوجد أحدٌ من البصرة رغم أنها مليئةٌ بأصحاب الشهادات العالية. ولا يوجد شخصٌ واحدٌ من البصرة بين 600 موظف يعملون في وزارة الخارجية. كما لا يوجد أحدٌ من البصرة في قيادة الجيش. أما في الجمعية الوطنية فلنا 12 مقعداً، في حين تتمتع النجف بثلاثين مقعداً مع أن سكانها أقل بكثير. ولعل حصتنا من موازنة الحكومة أقل من موازنة الفلوجة. ومع ذلك فإننا مسؤولون عن حوالي 80% من ثروة البلد. فلدينا النفط والزراعة وصيد الأسماك؛ وننتج الغاز الطبيعي ونحقق إيراداتٍ ضريبية من مرافقنا ومن معابرنا الحدودية. إن لدينا ثروة طائلة

نفوذ الحركات الإسلامية وحاولوا تحديها فلم يكونوا بمنأى عن الأذى إذ قتل كثيرٌ منهم. TP²⁴PT وكانت النتيجة النهائية فوراً قاده الإسلاميون أدت إلى اجتناب الثقافة السياسية الليبرالية من البصرة.

(ب) "النزعة الجنوبية"

ثمة عنصرٌ مركزي في هوية البصرة يتصل بعلاقتها مع باقي البلاد؛ وعادةً ما يشار إلى هذا العنصر باسم "الجنوبية". TP²⁵PT ولطالما كان الناس يشعرون بالمقت إزاء الدولة المركزية لأنها تستفيد منهم وتتعالى عليهم في آن معاً، ولأنها تقمعهم وتستغلهم. ويشتكى أحد القادة الدينيين قائلًا: "إن حصتنا من الكهرباء في تناقص" رغم أن المحافظة تنتج معظم إيرادات الدولة المركزية وتملك أهم محطة إنتاج طاقة في البلاد. TP²⁶PT

وواقع أن جميع السكان يلومون النظام السابق لامتناعه عن الاستثمار في البنية التحتية والخدمات العامة المحلية رغم التضحيات الكبيرة التي قدموها، وخاصة خلال الحرب الإيرانية العراقية. TP²⁷PT ونتيجة سلوك الدولة التسلطي النهاب، صار معظم الناس ينظرون إليها بصفتها قوةً غريبةً غازية تجرد المدينة من ثروتها. ويقول أستاذ جامعي:

"صارت حياتنا الاجتماعية واقتصادنا تحت سيطرة بغداد

السنة فيها. ويقول أحد القساوسة: "في البصرة يستهدف المسيحيون على نحو أقل لأننا لا نلعب دوراً في الصراع الطائفي العام. لقد غادر كثيرٌ من المسيحيين البصرة لأسباب اقتصادية وسافروا إلى الشمال أو إلى الأردن أو لبنان أو سورية، وسافر بعضهم إلى الغرب بأمل العثور على فرص أفضل. إن الصراع السياسي الجاري في البصرة يحرم المسيحيين حقاً من فرص العمل لأن الأحزاب السياسية النافذة تمنح الوظائف لاتباعها. وأما من ظلوا في المدينة فهم يحاولون عدم الظهور ويسعون إلى الحفاظ على علاقات سلمية مع بقية الجماعات في المدينة". مقابلة كرايسز جروب مع قس مسيحي، البصرة، آذار/مارس 2007.

TP²⁴PT - "اعتُبل 25 من زعماء العشائر في الأونة الأخيرة كان من بينهم ثلاثة من بني أسد، وكذلك شيخ عشيرة العيسى، وشيخ البو محمد، وثلاثة من شيوخ الغرامة. وبعد سقوط النظام السابق، انخرط معظم زعماء العشائر في التجارة المشروعة وغير المشروعة وناقسوا السياسيين. وهذا ما أدى إلى نشوب القتال غالباً. وقد قتل أكثر زعماء العشائر نفوذاً (من لهم نفوذٌ انتخابي مثلاً) لهذا السبب. أما اليوم، فإن العشائر تكره الأحزاب السياسية". مقابلة كرايسز جروب مع أحد المعلمين، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP²⁵PT - أي النزعة الجنوبية.

TP²⁶PT - مقابلة كرايسز جروب مع أحد القادة الدينيين، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP²⁷PT - يتردد هذا الكلام عن المعاناة كثيراً بين سكان البصرة. "كانت معاناتنا قاسية على نحو خاص خلال 35 عاماً مضت. وفي عهد صدام كان على أبنائنا أن يعملوا في الأعمال اليدوية وأن يكونوا جنوداً، وكانوا محرومين من الوظائف العامة واضطر قسمٌ كبير من سكان البصرة إلى الهجرة بسبب معاناتهم في ظل النظام السابق. والمدينة ملأى بيتاً بالحرب وأراملها. ويعيش الناس في منازل قديمة متداعية بسبب سوء الصيانة. وليس في المدينة كلها إلا ميتين اثنين وثلاثة مستشفيات. وكثيرٌ من الناس مرضى بسبب التلوث وسوء الرعاية الصحية. أما في حقول الخيل، فيقتل ثلاثة أشخاص أو أربعة كل يوم نتيجة القذائف غير المنفجرة. وهذا كله ليس إلا قسماً من معاناتنا". مقابلة كرايسز جروب مع برلماني من البصرة، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP²⁸PT - مقابلة كرايسز جروب مع أستاذ جامعي من البصرة، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP²⁹PT - مقابلة كرايسز جروب مع زعيم ديني من البصرة، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP³⁰PT - انظر مقالة ريدار فيسر الممتازة "البصرة، مركز شيعية ستان غير المتحمس"، تقرير الشرق الأوسط 242، ربيع 2007.

الإثنية أو الطائفية من الفيدرالية خطيرة على وحدة البلاد. وبنظرنا فإن الفيدرالية تتعلق أكثر بالأمر العملية ليس من المستحسن أن تظل جميع المؤسسات متمركزة في بغداد. سيكون لنا جيش واحد؛ وسيمثل سفراؤنا العراق كله. أما في الأمور الإدارية والمالية، فنريد أن تتمكن حكومتنا المحلية من اتخاذ القرارات. وخذ حالتنا مثلاً: لست معروفاً أبداً في بغداد، لكن شخصاً ما في بغداد لا يعرف شيئاً عن احتياجات البصرة أو عن قدرتي على تلبيةها هو من قام بتعييني. ما من مبرر لهذه المركزية فيما يتعلق بشؤون الحكم المحلي." TP³⁶PT

إن المركزية البيروقراطية الشديدة مثار غضب جميع الطبقات الاجتماعية. يشنكي البعض من ضرورة الذهاب إلى العاصمة من أجل إنجاز معظم المهام الإدارية. كما يشنكي رجال الأعمال من أن تدخل بغداد عن بعد يسيء إلى التنمية الاقتصادية المحلية. TP³⁷PT ويعزو العاملون في الصحة ما يحدث من تأخير وسوء تنظيم إلى عدم وجود سلطة محلية قادرة على اتخاذ القرار. TP³⁸PT ويحوم فوق هذه الشكاوى كلها خوفٌ قديم من عودة ظهور حكومة مركزية طاغية يوماً ما: "كما تعلم، عانينا الكثير من الحكومة المركزية. تؤدي المركزية المفرطة إلى أنظمة دكتاتورية. وإذا كنا نفضل الفيدرالية فذلك من أجل تقليل خطر ظهور حكومة مركزية قمعية وغير ديمقراطية مرة أخرى." TP³⁹PT

لقد جعل اعتماد قانون إدارة الدولة الانتقالي في آذار/مارس 2004 (وهو الدستور العراقي المؤقت) إلى جعل محافظات الجنوب، البصرة وميسان وذيقار، توحد جهودها؛ فقد نص على أن بوسع أية ثلاث محافظات أن تنشئ إقليمياً فيدرالياً. TP⁴⁰PT وهذا ما عكس مصالح استراتيجية متماثلة وكرهية مشتركة إزاء المركز. وكانت فكرة "إقليم الجنوب" ذات

TP³⁶PT - مقابلة كرايسز جروب مع عميد إحدى كليات البصرة الجامعية، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP³⁷PT - "نحتاج إلى مزيد من الحرية الاقتصادية. إن جميع القوانين التجارية والقرارات المالية وخطط التنمية تأتي من المركز. لكن المركز لا يفهم حاجتنا. يجب أن نطرح هذه الحاجات على المركز، وليس العكس".

مقابلة كرايسز جروب مع رجل أعمال من البصرة، آذار/مارس 2005.

TP³⁸PT - "المركزية هي جوهر المشكلة. فمثلاً، إذا كنا بحاجة إلى سائل من أجل المرضى، فقد تمنح بغداد محافظة البصرة كلها 10000 زجاجة، أما في العاصمة فكل مستشفى يحصل على 40000 زجاجة. وهذه الزجاجات التي تأتي كلها عبر ميناء أم قصر الذي يبعد 40 كم عن البصرة تذهب إلى بغداد كلها، ثم تضطر إلى إرسال الشاحنات إلى بغداد لإحضار حصتنا. ليس هذا الهدر للوقت والمال أمراً محيراً؟ وخذ مثلاً ثانياً: اتخذ وزير الصحة قراراً ببناء مستشفى أطفال جديد في البصرة. ومنح المشروع إلى شخص من وسط العراق. ولم يستترنا أحد أبداً في الأمر كله". مقابلة كرايسز جروب مع مدير مستشفى، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP³⁹PT - مقابلة كرايسز جروب مع زعيم عشائري في البصرة، آذار/مارس 2005. على النقيض مما هو شائع، لا يؤيد سنة البصرة بالضرورة حكومة مركزية قوية حتى وإن كان على رأسها أشخاص من مذاهب مختلفة. "نفضل حلاً فيدرالياً غير طائفي. ومن شأن النظام الفيدرالي أن يعني عدم وجود الدكتاتورية وعدم وجود مركزية بيروقراطية". مقابلة كرايسز جروب مع إمام سني، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP⁴⁰PT - يسمح الدستور العراقي الدائم الذي أقر عبر استفتاء شعبي في تشرين الأول/أكتوبر 2005 لأي عدد من المحافظات بإنشاء "إقليم".

لكننا لا نرى شيئاً منها. ونحن نسأل الحكومة المركزية دائماً أن تعطينا حصة عادلة، لكننا فقدنا أية ثقة فيها." TP³¹PT

ومع أنه لم يبق الكثير من الدولة العراقية، فإن ما بقي منها مركزي إلى حد بعيد. TP³²PT وتولد القيود التي تفرضها الدولة على الحكم المحلي استياءً كبيراً. ويعتقد السكان أن التأخير الشديد في تخصيص موازنة للبصرة يعود إلى تمييز متعمد. TP³³PT ومع أن هذا يمكن أن يكون ناجماً إلى حد كبير عن الحمل البيروقراطي الزائد عامة، فهو يعزز مع ذلك الاستياء الشعبي المحلي بسبب قلة استثمارات الدولة وبسبب سوء الإدارة على المستوى المحلي.

ولأن سكان البصرة مقتنعون بأن السلطات المركزية تتحكم بهم، فهم يؤيدون مزيداً من الاستقلالية الإدارية. وفي شباط/فبراير 2004، أيقظ المحافظ حلماً انفصالياً قديماً، TP³⁴PT قائلاً إن البصرة ومحافظةها يجب أن تصبح دبي جديدة: منطقة تسيطر على ثروتها وتعمل بصفة محرك اقتصادي للبلاد كلها. TP³⁵PT ومنذ عام 2005 فصاعداً، تشكل إجماعٌ في البصرة حول فكرة تعزيز الحكم المحلي. وكان جميع من قابلناهم يؤيدون عملياً صيغة "فيدرالية إدارية" لا تصل حتى الانفصال لكنها تسيطر إلى حد بعيد على شؤون الإدارة اليومية. ويقول عميد إحدى الكليات الجامعية:

"ما معنى هذا على نحو ملموس؟ نحن نرى أن الصيغ

TP³¹PT - مقابلة كرايسز جروب مع برلماني من البصرة، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP³²PT - "كنا نعمل ضمن نظام مركزي عشري السنين. وقد عانينا الكثير جراء ذلك، وبسبب بغداد عامة. والأمر يتعلق دائماً بتلقي الأوامر من الأعلى. إنهم يستطيعون تخصيص الكثير لأنفسهم (من حيث الأمور الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية). لكن ثمة عقبة هي بيروقراطية الدولة التي تتحكم بكل شيء. وعلينا أن نغير ذلك". مقابلة كرايسز جروب مع أحد أعضاء مركز البصرة للأبحاث، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP³³PT - "أرسلت بغداد موازنة المدينة لعام 2006 في شهر حزيران/يونيو. ولا تستطيع الحكومة المركزية مساعدة الحكم المحلي على توفير الخدمات العامة. وهذا ما يجعل الحكم المحلي غير قادر على تنفيذ المشاريع الأساسية". مقابلة كرايسز جروب مع عضو المجلس المحلي في البصرة، البصرة، آذار/مارس 2007. ويسوق المسؤولون المحليون هذه الحجة تبريراً لفشل المحافظة التي يقال إنها تشهد فساداً متفشياً وتبدأ للموارد المحلية. لم يصل البصرة أي تمويل عام 2005؛ أما في عام 2006 فلم تحصل على 90% من موازنتها إلا بنهاية العام. مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة التنمية الدولية، لندن، شباط/فبراير 2007. وبصرف النظر عن هو المسؤول فعلاً، كان بوسع محافظ البصرة لوم الحكومة المركزية على انعدام مشاريع إعادة البناء.

TP³⁴PT - انظر ريدار فيسر، "البصرة، دولة الخليج التي فشلت: الانفصالية والوطنية في جنوب العراق"، (مونستر، 2005).

TP³⁵PT - انظر "غلف نيوز"، 24 شباط/فبراير 2004. يكرر كثيرٌ من رجال الأعمال في البصرة هذه الدعوة: "النقل إن دخل البصرة يمثل 90% من دخل العراق. لست أقول بأن تكون موازنة البصرة أكثر من موازنة غيرها، لكن على المرء أن يتهم بعض الاهتمام بحاجات المدينة. فكلما تطورت البصرة لتصبح منطقة اقتصادية غنية كلما أنتجت مزيداً من الدخل لصالح بقية البلاد. وإذا قمت بتطوير مناطق أخرى على حساب البصرة، فإننا نخسر جميعاً". مقابلة كرايسز جروب مع عضو في غرفة تجارة البصرة، البصرة، آذار/مارس 2005.

الفضيلة، تكتسب إقامة إقليم جنوبي ينحصر بالمحافظات الثلاث الغنية بالموارد جاذبية كبيرة لأن الحزب لا يملك أنصاراً في أماكن أخرى من العراق. وعلى العكس تماماً، فإن المشروع البديل الذي يطرحه المجلس الأعلى ويقضي بإقامة إقليم أكثر اتساعاً يخطط له منذ عام 2005 ليس في نظر حزب الفضيلة إلا خطراً حقيقياً لأن من شأنه أن يضعف نفوذه إلى حد كبير. ومع أن وجود المجلس الأعلى في البصرة مازال محدوداً، فإنه يستخدم تمثيلة البرلمان القوي وتحالفه مع الأكراد من أجل إقرار قانون يمكنه من السير قدماً في برنامج عمله الفيدرالي الخاص به. TP⁴⁵PT

اتخذت المواجهة بين المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وبين حزب الفضيلة بشأن الفيدرالية أشكالا شتى. فقد حاول المجلس الأعلى إبقاء البصرة تحت سيطرة بغداد ريثما يتمكن من فرض إقليم فيدرالي شيعي موسع؛ في حين حاول حزب الفضيلة تعزيز استقلالية البصرة. لكن المجلس الأعلى فقد مواقعه بعد أن أصبحت المناصب الرئيسية في المحافظة تحت سيطرة حزب الفضيلة، على أن حزب الفضيلة جُرد من وزارة النفط في الحكومة المركزية مما جعله يضاعف جهوده في البصرة. وقد استخدم كل من الحزبين العنف أكثر من مرة، وشكل تحالفات مع تنظيمات محلية أخرى TP⁴⁶PT ولجأ إلى الألاعيب الاقتصادية. وفي الأسابيع الأخيرة، جرى تنظيم مظاهرات ضخمة من قبل تحالف من خصوم حزب الفضيلة، ومنهم المجلس الأعلى والصدريون، وهدفت إلى الإطاحة بالمحافظ. TP⁴⁷PT وبالاستفادة مما له من نفوذ في بغداد، يسعى المجلس الأعلى مدعوماً من الأكراد إلى فتح قطاع النفط أمام الاستثمار الأجنبي بحيث يعزز موقعه بصفته المتعامل الأساسي مع الخارج. وقد حاول حزب الفضيلة مقاومة هذا المسعى إذ بلغ به الأمر حد قطع

جاذبية خاصة في أعين المثقفين وزعماء العشائر الذين تمتد جذورهم في المحافظات الثلاث، وكذلك في أعين الأحزاب السياسية التي تملك نفوذاً محلياً، كحزب الفضيلة مثلاً. TP⁴¹PT وكان على ممثلي الأحزاب السياسية الوطنية في البصرة أن يتجاوبوا تدريجياً مع هذه الدعوة التي تزداد شعبية؛ مما أفضى إلى نشوء توترات وتناقضات بينهم وبين قياداتهم في بغداد. ويقول أحد رموز التيار الصدري في البصرة: "إن زعيمنا مقتدى الصدر ضد الفيدرالية. ومن الناحية الرسمية، يعارض الصدريون الفيدرالية لأنها عنصر انقسام طالما أننا نعيش في ظل الاحتلال. أما من ناحية شخصية، فأنا مؤمن بالفيدرالية لأنني أعتقد أن لجنوب العراق هويته الخاصة. وأعتقد أن علينا أن نحوز حصة أكبر من الموارد." TP⁴²PT

وفي أواخر 2004 وأوائل 2005، ظهر عددٌ من الحركات السياسية الصغيرة نسبياً التي يركز برنامجها السياسي على نحو يكاد يكون حصرياً على مسألة الإقليم الفيدرالي الجنوبي. ومنها "مجلس العراق الفيدرالي" و"مجلس الإقليم الجنوبي"، وقد افتتح كلاهما مقرات في البصرة وميسان وذي قار. TP⁴³PT ومن وقتٍ لآخر خلال عامين ونصف مضياً، حاولت الحركتان إعادة تنشيط النقاش وأثارتا جدالات حادة وردود فعل غاضبة من جانب من يرون أن أي نوع من الفيدرالية خطر على الوحدة الوطنية، وكذلك ممن يدعون إلى إقليم جنوبي واسع يضم محافظات الأغلبية الشيعية التسع والمركز معاً (إقليم الوسط والجنوب)، مثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية. وعلى سبيل المثال، نظم مجلس الإقليم الجنوبي في 14 نيسان/أبريل 2007 مؤتمراً آخر يدعو إلى تشكيل إقليم جنوبي يضم محافظات البصرة وميسان وذي قار.

وقد أصبحت قضية الفيدرالية وتفصيلها المحددة أداة مركزية في الصراع من أجل السيطرة السياسية في البصرة. ومن حيث الأساس، صار الأمر موضع صراع بين حزب الفضيلة (انتخب أحد أعضائه، وهو محمد الوائلي، لإدارة المحافظة في شباط/فبراير 2005) والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية (الذي قاد المحافظة لفترةٍ وجيزة بعد تعيين حسن الراشد محافظاً في تشرين الثاني/نوفمبر 2004). TP⁴⁴PT وبالنسبة لحزب

وهي تحالف، فازت باتي عشر مقعداً، فإن حزب الفضيلة برز بوصفه أقوى الأحزاب. كما شكل الحزب تحالفاً مع قائمة التحالف العراقي بقيادة رئيس الوزراء السابق إياد علاوي الذي فاز بأربعة مقاعد، وكذلك مع تجمع مستقبل العراق، وهو تشكيلٌ صغير فاز بمقعدين. ثم توصل الفضيلة إلى صفقة مع حركة الدعوة الإسلامية التي منحها فوزها بثلاثة مقاعد ما مجموعه 21 متعاطفاً. ثم انتخب المجلس إياد علاوي محافظاً بالاقتراع السري. وأما منصباً نائب المحافظ ورئيس مجلس المحافظة فذهب إلى لؤي البطاط، رئيس تجمع مستقبل العراق، وإلى محمد العبادي من حزب الفضيلة.

TP⁴⁵PT - للاطلاع على تحليل للأثر الذي يكون لهذا القانون على الصراع بين المشروعين الفيدراليين المتنافسين، انظر مثلاً ريدار فيسر "البصرة، مركز شيعية ستان غير المتحمس"، وردت سابقاً.

TP⁴⁶PT - تحالف الفضيلة مع التحالف الوطني العراقي بزعامة العلماني إياد علاوي، وكذلك مع حزب الله، وهو مجموعة إسلامية صغيرة موجودة في الأهورا الجنوبية. وشكل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية تحالفاً يعرف باسم "البيت الخماسي" وهو يضم فيلق بدر (ميليشيا المجلس الأعلى) وحركة سيد الشهداء (حركة إسلامية صغيرة) وثأر الله ومؤسسة شهيد المهرب (منظمة تابعة للمجلس الأعلى). ورغم العلاقات المتوترة بين المجلس الأعلى والصدريين، فهما متحالفتان ضد حزب الفضيلة من وجهة رسمية.

TP⁴⁷PT - "رداً على ذلك، دعا حزب الفضيلة الجماعات المسلحة الأخرى في المحافظات القريبة إلى مساندة المحافظ الذي صار أهم رصيد للحزب. وقال زعيم الحزب محمد البيعوي إن أية محاولة للإطاحة بالمحافظ ستعتبر هجوماً ضد حزب الفضيلة عامة. والواقع أن جميع مصالح الحزب تتمثل في المحافظ الآن. إن العلاقة بين المجلس الأعلى والصدريين لا تشهد أي تحسن، على أن الجانبين مصممان على مقاتلة حزب الفضيلة". مقابلة كرايسز جروب مع عضو في المجلس الأعلى، البصرة، أيار/مايو 2007.

TP⁴¹PT - انظر مقالة ريدار فيسر الممتازة "البصرة، مركز شيعية ستان غير المتحمس"، وردت سابقاً.

TP⁴²PT - مقابلة كرايسز جروب، البصرة، آذار/مارس 2005. "إن المشاعر الإقليمية في أقصى جنوب العراق شديدة الوضوح، وكثيراً ما تتقدم على أيديولوجية قيادات الأحزاب المركزية الوطنية. وقد تبدى هذا لدى حزب الفضيلة (الذي يملك قاعدة شعبية في البصرة أكثر من أي مكان آخر)، وحزب الدعوة (فرع حركة الدعوة الإسلامية)، إضافة إلى صدريي محافظة ميسان (الذين يعمدون أحياناً إلى الخطاب الإقليمي عندما يتصل الأمر بالنفط)، بل وحتى في صفوف أعضاء المجلس الأعلى للثورة الإسلامية (الذين مازال بعضهم يركز على البصرة وأقصى الجنوب حتى بعد أن أعلنت قياداتهم المركزية هدف إقامة إقليم شيعي واحد يضم جميع المحافظات التسع ذات الأغلبية الشيعية)". اتصال عبر البريد الإلكتروني بين كرايسز جروب وريدار فيسر، 15 نيسان/أبريل 2007.

TP⁴³PT - مقابلات كرايسز جروب مع ممثلين عن مجلس العراق الفيدرالي ومجلس الإقليم الجنوبي، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP⁴⁴PT - فاز حزب الفضيلة بواحدٍ وأربعين مقعداً في انتخابات مجلس المحافظة في كانون الثاني/يناير 2005. ومع أن قائمة "البصرة الإسلامية"،

على المحافظة، فهو مدفوع إلى إلقاء لائحة انعدام الأمن وقلة الخدمات على كاهل التخريب الأجنبي. ويقول مسؤول محلي إن الدول المجاورة تغذي عدم الاستقرار والفوضى بغية تعزيز التهريب عبر الحدود وتقويض اقتصاد العراق وضمان استمرار اعتماد البصرة، والعراق عامة، على السلع المستوردة. TP⁵⁴PT وتتهم القوات البريطانية أيضاً بصب الزيت على نار العنف. يقول أحد كبار مسؤولي حزب الفضيلة:

"إن إيران وغيرها يحولون العراق، والبصرة خاصة، إلى ميدان لصراعاتهم. ومع أن منصب المحافظ يكون مركزاً للصراع الداخلي دائماً، فمن غير الجائز لومه على الفساد والفوضى. إن الأثر السلبي للبلدان المجاورة هو السبب الحقيقي للكامن خلف فشل الحكومة المحلية في تطوير البصرة وتوفير الخدمات الأساسية." TP⁵⁵PT

ويزعم مختلف الفاعلين المحليين وجود تدخل أجنبي بغية الانتقاص من مصداقية خصومهم وإضعافهم. والتهمة الأكثر شيوعاً هي العمالة لإيران (وهي تهمة يوجهها الجميع للجميع). ويشجب "ثأر الله" كلاً من حزب الفضيلة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية بوصفهما أدوات للنفوذ الإيراني: "ليس الإيرانيون على قدر من الحماسة والسذاجة يجعلهم يرسلون عناصر مخابراتهم. وهم ليسوا محتاجين لذلك بفضل الأحزاب التي كانت تعيش في المنفى في إيران، وبفعل من يهيمنون على الحكومة المحلية الآن. إن إيران أعواناً عراقيين على الأرض." TP⁵⁶PT وعلى نحو مماثل، بوجه خصوم تنظيم "ثأر الله" نقداً شديداً له ويتهمونه بأن له علاقات بالمخابرات الإيرانية التي ساعدته (كما يقول حزب الفضيلة) على تنفيذ محاولة اغتيال المحافظ. TP⁵⁷PT

وعلى نحو أكثر عمومية، ومع توجيه الاتهام إلى دول أخرى أيضاً، صارت إيران هدفاً لجميع اتهامات التدخل الخارجي. ويميل السكان إلى افتراض وجود كامل للمخابرات الإيرانية في مختلف أنحاء المدينة. ويعلق مسؤول محلي بالقول: "إن تدخل إيران في البصرة أقوى بكثير من تدخل الكويت مثلاً. فمساهمة الكويت اقتصادية بطبيعتها. أما إيران فمن الواضح أنها تسعى

الكهرباء عن بغداد انتقاماً. TP⁴⁸PT وما زالت نتيجة هذا الصراع غير محسومة.

(ت) التدخل الأجنبي

يشترك أهل البصرة عامة في كراهية التدخل الأجنبي والخوف منه. وقد عزز موقع المدينة ووفرة مواردها الطبيعية أهميتها الاستراتيجية في نظر كل من إيران وملكيات الخليج. وأدى الصراع بين إيران من ناحية وبين الأنظمة العربية والغرب من ناحية أخرى إلى زيادة الإحساس المحلي بالضعف. ويقول أحد القادة السياسيين:

"لا يجوز الفصل بين النزاع المحلي وبين الصراع الكبير بين الغرب [دول الخليج والبلدان الغربية] والشرق [إيران]، وذلك بسبب موقع البصرة الاستراتيجي وغنى مواردها. وفي الثمانينات وجدنا أنفسنا محصورين بين صدام وحلفائه الغربيين والعرب من ناحية وبين إيران من ناحية أخرى. أما في التسعينات حصرنا أيضاً بين النظام وبين حلفائه السابقين. والبصرة اليوم عند مفترق طرق الصراع الإيراني الأمريكي، والصراع الإيراني العربي، وصراع الفصائل المختلفة داخل إيران، وكذلك الحرب الأمريكية ضد الإسلام عامة. ويحاول كل طرف في هذه النزاعات كلها الفوز بموقع في البصرة للتأثير على مجرى الأحداث. تدعم إيران الأحزاب الإسلامية التي لها علاقات قديمة معها. في حين تدعم الولايات المتحدة قوى محلية وإقليمية قادرة على تحدي النفوذ الإيراني؛ وهكذا دواليك." TP⁴⁹PT

وفي مناخ التوتر والاستقطاب هذا، تتواتر كثيراً شائعات تتحدث عن مواجهة عسكرية من شأنها أن تبتلع البصرة. ففي أواسط 2006 قالت تقارير إن القوات البريطانية تتجمع عن حدود إيران تاهياً لعملية عسكرية كبرى. TP⁵⁰PT وأدت أزمة آذار/مارس 2007 التي نجمت عن أسر إيران جنوداً بريطانيين إلى خلق مخاوف مماثلة. TP⁵¹PT

وعادةً ما تستجد الأطراف السياسية الأساسية الفاعلة بخطر التدخل الخارجي لتبرير سلوكها أو للتصل من المسؤولية عن إخفاقاتها. ففي عام 2006، عندما طرد معظم السنة من المدينة قسراً كجزء من عملية تطهير طائفي واسعة أعقبت تجديرات سامراء، TP⁵²PT جرى اتهامهم بأنهم "مخترقون" من قبل الوهابيين السعوديين. TP⁵³PT ومهما يكن الحزب الذي يسيطر

قراءة شديدة الحرفية للنص الديني ولا يتيح كبير مجال للتأمل العقلاني أو للتفسير. ويعتبره معظم الشيعة مكافئاً لنمط السلفية الذي تعتمده القاعدة. تقرير كرايسز جروب "فهم الإسلاموية"، ورد سابقاً، ص 10.

TP⁵⁴PT - "تقوم بلدان مثل إيران والكويت والسعودية والإمارات بدس عملاء مخابراتها في المدينة. إن تدهور الوضع في البصرة يفتح سوقاً أمام بضاعتهم. وينفق العراق عموماً مبالغ ضخمة من أجل الاستيراد من هذه البلدان. وهذا ما يجعلهم يحاولون إطالة أمد الفوضى قدر ما يستطيعون"، مقابلة كرايسز جروب مع موظف في المحافظة، البصرة، آذار/مارس 2007. TP⁵⁵PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول كبير في حزب الفضيلة، آذار/مارس 2007. TP⁵⁶PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في "ثأر الله"، آذار/مارس 2007.

TP⁵⁷PT - "إن وحدة الجرائم الكبرى [وحدة نخبة في الشرطة] مخترقة من قبل الإيرانيين وأعضاء 'ثأر الله'. وكما زعم المحافظ نفسه، فإنه نجا من محاولة الاغتيال التي رتبها هذه الوحدة". مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في المحافظة، البصرة، كانون الثاني/يناير 2007.

TP⁴⁸PT - نايتس وويليامز، ورد سابقاً، ص 23.
TP⁴⁹PT - مقابلة كرايسز جروب مع زعيم "ثأر الله"، البصرة، آذار/مارس 2007.

TP⁵⁰PT - مقابلات كرايسز جروب مع عدد من الصدريين، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP⁵¹PT - انظر "الشرق الأوسط"، 28 آذار/مارس 2007.

TP⁵²PT - انظر تقرير الشرق الأوسط رقم 52، كرايسز جروب، "أهي الحرب العراقية التالية؟ الطائفية والحرب الأهلية"، 27 شباط/فبراير 2006.

TP⁵³PT - مقابلات كرايسز جروب مع عناصر ميليشيا مشاركين في العنف الطائفي، البصرة، آب/أغسطس 2006. الوهابية مذهب إسلامي سني يلتزم

ويسمع المرء في البصرة مزيداً من الروايات بهذا الشأن (من غير إثباتٍ عادةً). وفي نظر البعض، تتمثل طموحات إيران واستراتيجيتها التي لا تعرف الهوادة في محاولة إفراغ الجنوب من أقليته بغية المساعدة في تحقيق هدف المجلس الأعلى في إقامة إقليم شيعي جنوبي كبير يحكمه بنفسه. TP⁶¹PT وهذه الصورة لسياسة إيرانية شديدة المكيافيلية تتبع من قلق العراقيين العميق الدائم إزاء جارثهم إيران؛ وهو قلقٌ يضرب جذوره في الحرب العراقية الإيرانية وفي توتراتٍ أقدم عهداً بين العالمين العربي والفرسي.

خلف أهدافٍ سياسية. TP⁵⁸PT ويقول أستاذٌ جامعي: "أقامت المخابرات الإيرانية وجوداً لها في القنصلية الإيرانية وفي الجمعيات الإنسانية والشركات والأحزاب السياسية الموالية لإيران". TP⁵⁹PT ويحمل المسؤولون البريطانيون آراءً شبيهةً بهذا الرأي:

"تستخدم إيران عدداً من القنوات العلنية والسرية. وقنواتها العلنية هي الشركات التجارية ودعم الحجيج. وهي تقيم حواراً سياسياً مشروعاً مع كثيرٍ من الأحزاب السياسية وأولها تلك التي قاومت نظام صدام بمساعدة إيرانية مثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية. وسياسة إيران من حيث الأساس هي السعي من أجل عراقٍ يحقق مصالحها؛ أي عراقٍ لا يهددها ويستطيع الشيعة أن يعيشوا فيه آمنين من غير خوفٍ من الاضطهاد. كما أن إيران تخشى الوجود العسكري الأجنبي عند حدودها أيضاً (الأمريكي والبريطاني خاصةً). وبهذا الصدد، يقوم مسؤولو الأمن والمخابرات الإيرانيون بدعم مختلف الناشطين الذين يحاولون إجبارنا على الانسحاب، وذلك عبر دعم فني سري يتضمن تقديم الأسلحة وأجهزة التفجير المتطورة.

لكن من الصعب جداً تقدير مدى نمو النفوذ الإيراني بالنظر إلى أن كثيراً من الشيعة العراقيين يرتابون في إيران. وفي الوقت عينه، فإن العراقيين براغماتيون غالباً ومستعدون لقبول الدعم الإيراني إذا وافق مصالحهم. ولهذا السبب مازالت معظم الأحزاب تستفيد من إيران لأن من حماقة بالنسبة لها أن تبتعد عن أقوى جيرانها. وعلى النحو نفسه، ورغم أن كثيراً ممن يهاجمون قوات التحالف يدعون أنفسهم وطنيين، فإنهم سعداء بقبول الدعم الإيراني لتحقيق أكثر أهدافهم راهنية، وهو جلاء قوات التحالف. ولن يتضح الحجم الحقيقي لنفوذ إيران إلا عندما تنسحب قوات التحالف مما يقلل حاجة الشيعة التكتيكية إلى التحالف مع طهران". TP⁶⁰PT

إيران الأولى هو ضمان اشتداد متاعب الولايات المتحدة وبريطانيا وانسحابهما. أما فيما يخص العراقيين، فإن إيران تحاول بناء علاقات طيبة مع كل من يمكن أن يكون مهماً، بما في ذلك التيار الصدري. وهم يساندون جميع الخيول في هذا السباق. إن جميع المجموعات المسلحة تتلقى الآن نقوداً ومواد وتدريباً من إيران. بل خفف الصديريون أيضاً من خطابهم المعادي لإيران، وهم يتلقون أموالاً إيرانية حتى وإن كانت طهران باقية على علاقاتها الوثيقة مع المجلس الأعلى للثورة الإسلامية. وفي الوقت عينه، تتجه المساعدات الإيرانية إلى الجمعيات الخيرية، بما فيها الإسلامية منها. وإيران تستثمر أيضاً في النشاطات الاقتصادية في الجنوب خاصةً. مقابلة كرايسز جروب، شباط/فبراير 2007. وبما يتعلق بأجهزة التجسس، تزعم بعض المصادر أن لديها أدلة لا تتحصى على أنها من مصدر إيراني، قارن ناينس وويليامز، ورد سابقاً، ص 27 - 28.

TP⁶¹PT - "نصر الأحزاب التي كانت تعيش في منفاهها في إيران على نسختها الطائفية من الفيدرالية. وبرأيي فإن هذه الفيدرالية ليست إلا ستاراً من الدخان يخفي هدفاً متمثلاً في تقسيم العراق إلى ثلاثة أجزاء: شيعي وسني وكردية. لقد أرغم السنة والمندائيين والمسيحيين على مغادرة البصرة. وتستخدم إيران حلفاءها من أجل طرد الاقليتين وتمهيد الطريق أمام إقامة النوع الذي تفضله من الفيدرالية في الإقليم". مقابلة كرايسز جروب مع أحد الصحفيين، البصرة، كانون الثاني/يناير 2007.

TP⁵⁸PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في سلة الموانئ، البصرة، آب/أغسطس 2006. ويرد مسؤول بريطاني قائلاً: "من الأصعب كثيراً على دول الخليج الأخرى أن تمتلك نفوذاً في الجنوب. فكثيرٌ من الشيعة يرون فيها دولا يهيمن فيها السنة وكانت تتاصر النظام السابق. إن بعض هذه الدول، كالسعودية والكويت، تهتم بالأمور الأمنية الأكثر اتساعاً وبصفقات الأعمال المحلية؛ وهي تحاول إقامة صلاتٍ مع العشائر المحلية، لكنها قلقةٌ جميعاً مما تراه تنامياً للنفوذ الشيعي (وبالتالي الإيراني كما يظنون). وهي تركز جهودها على إقامة علاقاتٍ مع الحكومة المركزية وعلى محاولة ممارسة نفوذ لدى السنة الذين هم أبعد باتجاه الشمال". مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة الدفاع، لندن، شباط/فبراير 2007. "ليس لدى دول الخليج العربية دائرة نفوذ تستحق الحديث عنها في الجنوب. وهي لا تكاد تفعل شيئاً لبناء هذا النفوذ. ويكاد خطابها وسلوكها (ترددهما دول أخرى مثل مصر) يرقى إلى حد القول بأنها غير راضية عن معاملة الحكومة العراقية للسنة. لكننا بعيدون جداً عن قيام ملكيات الخليج بمساعدة سنة العراق". مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول بريطاني، لندن، شباط/فبراير 2007.

TP⁵⁹PT - مقابلة كرايسز جروب مع طالب جامعي، البصرة، شباط/فبراير 2007. TP⁶⁰PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة الدفاع، لندن، شباط/فبراير 2007. ويكرر مسؤولون بريطانيون آخرون الرأي نفسه: "هدف

2 النفط والمليشيات والنزاع على الموارد

رغم أهمية العوامل سالفة الذكر (التدخل الخارجي والتوتر بين البصرة وبغداد وتنوع مدينة البصرة)، فهي لا تفسر معظم ما يجري من عنف. وبصرف النظر عما تقوله الشائعات، ثمة أدلة فعلية قليلة بشأن مدى التدخل الخارجي. ومع أننا تلقينا شهادات يمكن تصديقها بشأن التورط الإيراني، فالظاهر أنه يهدف بمعظمه إلى تشجيع مهاجمة قوات التحالف لا إلى إذكاء نار العنف المحلي المتبادل. TP⁶²PT ويتصل معظم الأدلة بالدعم المقدم إلى عمليات تستهدف القوات البريطانية، مع أن الناشطين المحليين مضطرون إلى الاعتماد على مواردهم الخاصة أيضاً، رغم الدعم. ويقول مقاتل في جيش المهدي:

"يبلغ طول الحدود بين إيران والعراق مئات الكيلومترات. ولا يستطيع البريطانيون منع أي دعم إيراني. وذات يوم، تلقينا صواريخ كاتيوشا من إيران مما سمح لنا بإسقاط طائرة هيلكوبتر. لكن، هل تعتقد أن إيران هي مصدر السلاح الوحيد بالنسبة لجيش المهدي؟ بالطبع لا! إن علينا الاعتماد على غيرها. فعلى سبيل المثال، رفض جنرال عراقي منحنا ما طلبناه من مساعدة، لكنه (لتجنب انتقامنا) دلنا على مكان مليء بالألغام المتروكة منذ الحرب العراقية الإيرانية. إن موارد محلية من هذا القبيل أمر لا غنى عنه بالنسبة لجيش المهدي." TP⁶³PT

ورغم وجود شكوك قوية في تدخل أجنبي شديد، يمكن القول عامة إن أهل البصرة يعترفون بأن اتهامهم لإيران يستند إلى الشائعات وإلى الاستدلال المنطقي أكثر مما يستند إلى الحقائق. "صحيح أن البصرة مدينة حدودية، وأنها قريبة من إيران والكويت والسعودية. وصحيح أننا نسمع دائماً عن التدخل الخارجي (الإيراني خاصة). لكننا لا نملك دليلاً ملموساً." TP⁶⁴PT من الواضح أن النفوذ الإيراني في الجنوب يتجاوز نفوذ أي طرف خارجي آخر، رغم أن من الواضح أيضاً أنه يمارس أولاً من خلال أطراف محلية مشاركة في الصراع الداخلي على السلطة يسعى كلٌّ منها خلف مصالحه الفئوية، وتبدو غالباً قليلة الأهمية، ومناوئة أحياناً لأهداف مساندها الخارجي الاستراتيجية.

"لو كان العراق على القمر، لاستمر العراقيون في قتل بعضهم بعضاً. وتتجلى المبالغة في تقدير التأثير الخارجي على العراق من خلال التأمل في النفوذ الإيراني لدى شيعة العراق.... إن الشيعة يخوضون حربهم الأهلية الخاصة مع وجود فصائل محلية تقاثل لأسباب محلية. إن

TP⁶²PT - يقول إمام سني إن إيران لا علاقة لها بمعظم حوادث العنف الطائفي الوحشي التي أدت بالسنة إلى النزوح من المدينة. "إن إيران مصالح دينية واستراتيجية في العراق. لكنني لا أعتقد أن لها مصلحة في تعزيز الفوضى". مقابلة كرايسز جروب، البصرة، آب/أغسطس 2006.
TP⁶³PT - مقابلة كرايسز جروب مع مقاتل من جيش المهدي، البصرة، آب/أغسطس 2006.
TP⁶⁴PT - مقابلة كرايسز جروب مع صحفي محلي، البصرة، آب/أغسطس 2006.

الأطراف الخارجية تتدخل؛ لكنها هامشية بالنسبة للنزاع الرئيسي بين مختلف الفصائل. ورغم أن إيران قد تتمتع بمزية على قوات التحالف في معرض محاولتها التأثير على العراقيين (وهي العلاقة القديمة مع شيعة العراق والمعرفة الأفضل بالثقافة المحلية)، فإن الإيرانيين كغيرهم من الأجانب يسبحون في بحر الارتباك الناجم عن كثرة الفصائل المحلية كما يسبح غيرهم. فبالنسبة لهم، كما لغيرهم، يمكن استنجاز النفوذ فقط، ولا يمكن شراؤه أبداً." TP⁶⁵PT

وبالمثل، فإن الخلاف بشأن الفيدرالية والعلاقة مع بغداد، مع أنه في مركز الجدل، غير مسؤول عن معظم التوتر الذي تشهده الحياة اليومية. وهو في معظمه مجالاً للتلاعب المغرض من قبل السياسيين المحليين والوطنيين. وأما المواطن العادي الذي خاب أمله في زعمائه فيبدو كمن فقد اهتمامه بالأمر كله. ومع صعود الأحزاب الإسلامية، يقلق مواطنو البصرة المعتدلون والعلمانيون، كما هو حالهم منذ بداية 2005، من أن الفيدرالية يمكن أن تعني هيمنة من قبل حكومة محلية رجعية محافظة. ويقول أحد أعضاء غرفة التجارة: "لا أريد انفصال البصرة عن الحكومة المركزية لأنني أخشى إطلاق يد الأحزاب الدينية بحيث تفرض قواعدها." TP⁶⁶PT وفي نظر البعض، صارت بغداد ضماناً ووزناً معادلاً لا غنى عنهما. TP⁶⁷PT ومنذ ذلك الوقت، أدى انتشار العنف وشدة الفساد وسوء الإدارة المحلية إلى مزيد من تراجع الثقة في جدول الأعمال الفيدرالي الذي كان الكثيرون يتبنونه في البداية. إن السياسيين يتقاتلون حوله، لا لأنه يعكس العواطف الشعبية، بل لأن الفيدرالية (مع ازدياد انقسام العراق) صارت فرس رهان ضمن إطار السعي العام إلى السلطة.

إن تنوع البصرة الذي كان مصدراً محتملاً للتوتر، يتعرض إلى تراجع كبير بفعل صعود الأحزاب الإسلامية المسلحة. وأما تقاليد المدينة المتمثلة في الانفتاح الذهني والتسامح عامة فقد اختفت، وغادرت المدينة العائلات التجارية البارزة فيها. وأجبرت معظم الأقليات غير المسلمة على الهجرة أو على البقاء بعيداً عن الأعين مما جعلها تختفي من المشهد الاجتماعي. TP⁶⁸PT بل إن الوجود السني نفسه صار شيئاً من الماضي، مما يقلل من احتمال العنف الطائفي. وقد أشار ضابط بريطاني في شباط/فبراير 2007 قائلاً:

TP⁶⁵PT - نايتس وويليامز، ورد سابقاً، ص 37.
TP⁶⁶PT - مقابلة كرايسز جروب مع عضو في غرفة تجارة البصرة، البصرة، آذار/مارس 2005.
TP⁶⁷PT - "نحن بحاجة دائماً إلى نوع من الإشراف من جانب بغداد. فإذا أراد المحافظ إعدام شخص مثلاً، فعليه أن يعود إلى بغداد. وعلى بغداد أن تبقى رقابتها على القرارات المحلية. وعلى البرلمان الوطني أن يمارس نوعاً من الرقابة". مقابلة كرايسز جروب مع زعيم عشائري، البصرة، آذار/مارس 2005.
TP⁶⁸PT - "يمكن للمرء أن يقول إن الأرمن والكلدان اختفوا من البصرة تماماً. ويقدر ما أعرف، فإن جميع الكنائس مغلقة الآن. ومن الصعب، أو المستحيل، أن يمارس المسيحيون شعائرهم الدينية. مازال بعض المندانيين في البصرة، لكن عددهم قليل جداً. وتقول مليشيات الأحزاب الإسلامية إن الله يحرم أي دين غير الإسلام. وما زال قادتنا الدينيون يشجعون الناس بالأفكار الرجعية". اتصال عبر البريد الإلكتروني بين كرايسز جروب وطبيب مولود في البصرة، أيار/مايو 2007.

وكانت النتيجة النهائية هيمنة احتكارية على السياسية في البصرة تمارسها جملة من الأحزاب الإسلامية المسلحة. وفي بداية عهد الاحتلال، تركز الهجوم على أعضاء النظام السابق كالبعثيين وضباط الجيش. أما مع الزمن، فقد اتسعت قائمة الأهداف لتتطال كل من يمكن أن يهدد المصالح السياسية أو الاقتصادية لهذه الأحزاب سواء كان شيعياً أو سنياً، وسواءً كان طبيبياً أو مهندساً أو صحفياً أو شيخ عشيرة أو مهرباً مستقلاً. وصارت الميليشيات التي انغمست في تزاحم وحشي على الموارد وفي دائرة مفرغة من الهجمات والهجمات المضادة مصدراً رئيسياً للعنف في البصرة. ولعل هذه صورة أولية لما سيحدث في بقية البلاد بمجرد تراجع أسباب الصراع الأخرى، وأولها القتال ضد قوات التحالف والعنف الطائفي.

(أ) تقويض الدولة

أدى الانتقال السياسي في البصرة إلى إعطاء الأحزاب دوراً مهيماً في النظام الجديد من غير أن يجبرها في الوقت ذاته على احترام حكم القانون الذي كان يفترض أن يشغل مركز القلب من هذا النظام. وبالنتيجة، عمدت الجماعات التي تمكنت من حيازة الموارد إلى فعل ذلك دون خوفٍ من عقاب، وتصرفت وكأنها عصابات إجرامية لا أحزاباً سياسية، إذ راحت تستخدم العملية الانتخابية من أجل المشاركة في نظام تجاهلت مبادئه الأساسية تجاهلاً كاملاً. وما أن صارت في السلطة، حتى امتنعت عن السعي لبناء قواعد اجتماعية، بل وكانت عاجزة عن ممارسة حكم فعال. والواقع أن سوء الإدارة الشامل الذي اتسمت به كلفها خسارة تأييد شعبي مهم. ويقول أستاذ جامعي: "رغم تدهور الخدمات العامة يوماً بعد يوم، فإن المسؤولين المحليين يقولون للناس كل يوم إنهم مشغولون بأمور حيوية كانهما الأمن الذي يتذرعون به لتبرير غياب إعادة البناء. لكن الناس يرون أنهم مهتمون بمصالحهم الخاصة فقط." TP⁷³PT لكنهم، ومن خلال مشاركتهم في آلية العنف، يعززون مكانتهم بوصفهم أطرافاً فاعلة يمكن أن توفر الحماية وأن تمارس الانتقام.

وبصرف النظر عن أسمائها وهيئتها الإسلامية، فإن الأحزاب المهيمنة لا تطرح برنامجاً حقيقياً للتقدم إلى الأمام أو جدول أعمال سياسياً، اللهم إلا فرض المعايير الاجتماعية المحافظة. لكن ليس من الواضح ما إذا كانت الكتلة الكبرى من عضوية هذه الأحزاب تدين بالولاء لأي شخصية دينية شيعية كبرى. "إن الأحزاب الإسلامية لا تلتزم بأوامر رجال الدين. وبكلمات أخرى، لا يستطيع أي رجل دين أن يؤثر حقاً في الأحزاب الإسلامية إذا ما ذهبت فتاواه عكس مصالحه." TP⁷⁴PT بل إن رموزاً تبلغ من القوة ما يبلغه آية الله العظمى علي السيستاني لا

"نزع كثير من العائلات السننية في الجنوب إلى بغداد أو الموصل في الشمال. وأما حقيقة أن نسبة السنة إلى الشيعة صارت منخفضة، ومتناقصة، فهي تعني أن العنف الطائفي صار الآن أقل شيوعاً مما هو في الشمال. لا يستطيع السنة اتخاذ موقف عدواني وهذا ما يقلل إمكانية قيام دورة من العنف الطائفي." TP⁶⁹PT

لقد امتصت الأحزاب الإسلامية العشائر. وجرى تجنيد البعض في الميليشيات المسلحة، TP⁷⁰PT كما جرى تخريف بعضها الآخر من خلال الاغتيال المنهجي لشيوخها خاصة. ويقول مقاتل في جيش المهدي:

"لقد انتهت عشيرة الغرامشة. صحيح أنهم كانوا جماعة من السفاحين واللصوص؛ لكن زمنهم ولى. لماذا؟ لأن البصرة مسيسة تماماً اليوم. وعلى كل شخص أن ينتمي إلى حزب سياسي. وليس بوسع أحد أن يبقى مستقلاً. عليك أن تنتمي إلى أحد الأحزاب حتى تتمتع بدعمه وبالحماية من الآخرين." TP⁷¹PT

وأما أقلية الشيعية التي كانت هدفاً لهجمات وحشية، فقد حاولت جاهدة أن تظل على الحياد. لكنها اضطرت إلى إنشاء ميليشيا خاصة بها مع الانضمام إلى معاهدة عدم اعتداء مع الأحزاب الرئيسية. TP⁷²PT

TP⁶⁹PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة الدفاع، لندن، شباط/فبراير 2007. فضلاً عما ذكر أعلاه، تعرض مسجداً سنيناً للتجوير في 15 حزيران/يونيو 2007 انتقاماً لتدمير مأذن مرقد الإمام العسكري في سامراء في وقت سابق.

TP⁷⁰PT - "بدأت العشائر في البصرة تسرق وتقتل وتختطف لمصلحتها الخاصة. لكن السياسيين وجدوا طريقة لتحويلهم إلى جنود لديهم. وجرى تجنيد كثير من أفراد الميليشيا من بين صفوف العشائر". اتصال عبر البريد الإلكتروني بين كرايسز جروب وطبيب مولود في البصرة، أيار/مايو 2007. TP⁷¹PT - مقابلة كرايسز جروب مع مقاتل في جيش المهدي، البصرة، آب/أغسطس 2006. جرى اغتيال شيخ عشيرة الغرامشة حسن جريح الغرامشي في أيار/مايو 2006. "الزمان" [يومية عراقية]، 15 أيار/مايو 2006.

TP⁷²PT - "بعد سقوط نظام صدام، حاولت الشيعية الابتعاد عن النزاعات السياسية والعنف الانتقامي المتبادل. لكن أشخاصاً فجرؤوا مسجدها وهددوا بطرد أفرادها من البصرة زاعمين أنهم من أصل سعودي. فما كان من الشيعية إلا أن تسلحت؛ لكنها طلبت من الأحزاب السياسية في البصرة توقيع معاهدة تسمح لهم بالعيش بسلام. وهذا ما جرى في مؤتمر الزهراء في نيسان/أبريل 2006 الذي ضم جميع الأطراف الرئيسية في البصرة". مقابلة كرايسز جروب مع أحد الصحفيين، البصرة، آب/أغسطس 2006. "من حيث المبدأ، اختارت الشيعية البقاء بعيداً عن السياسة. وبعد حرب 2003، حافظت على بعدها عن جميع الأحزاب السياسية وفضلت أن تظل معزولة. لكن الأحزاب أجبرتها على التورط عبر تهديدها. وعند ذلك جمعت الشيعية الأحزاب ضمن لجنة وناقشت الشؤون الأمنية على نحو غير رسمي محاولة حماية سلامتها وحيادها في وقت واحد. وأطلق على اللجنة التي انبثقت عن مؤتمر الزهراء اسم مجلس البصرة التداولي، وهي تجتمع مرة في الشهر". مقابلة كرايسز جروب مع مقاتل من جيش المهدي، البصرة، آب/أغسطس 2006. وتقوم هذه اللجنة التي صممت من أجل الحفاظ على سلامة الشيعية وحيادها بتنظيم العلاقات بين الجهات السياسية المحلية. ويبدو اتفاق الزهراء في مهبط الريح الآن بفعل اشتداد النزاع بين حزب الفضيلة وغيره من الأحزاب الإسلامية: "كان الوضع هادئاً نسبياً في البصرة، لكن الأمور تتدهور سريعاً. وكان ثمة اتفاق أو تفاهم بين الميليشيات والعشائر وغيرها من الجهات الفاعلة؛ لكن هذه

القواعد تعرضت للحرق. واليوم تقوم هذه المظاهرة الضخمة ضد المحافظ، وتتشب صدامات مسلحة عارضة تهدد بالخروج عن السيطرة". مقابلة كرايسز جروب مع صحفي محلي، البصرة، حزيران/يونيو 2007.

TP⁷³PT - مقابلة كرايسز جروب مع أستاذ جامعي، البصرة، آذار/مارس 2007.

TP⁷⁴PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في المحافظة، البصرة، آذار/مارس 2007.

ويكون القتال بين الأحزاب في أشد أحواله عندما يتعلق الأمر بثلاثة أمور تملك قيمة كبيرة: تهريب النفط، والهيمنة على قوات الأمن، والنفاذ إلى الخدمات والموارد العامة. TP⁸¹PT ويعترف البعض بهذا الأمر صراحة، ومنهم مقاتل في جيش المهدي: "جميع الأحزاب من غير استثناء تمارس سرقة النفط وتهريبه. وأنا أقصد الجميع بما فيهم التيار الصدري. صحيح أنني أنتمي إلى ذلك التيار، لكنني أحاول أن أكون صريحاً وصادقاً." TP⁸²PT وقال آخر: "عندما اجتمع مقتدى الصدر مع ممثلين عن تياره في البصرة حكّ أنفه وقال ساخراً: 'أشم رائحة البنزين'. وكانت تلك طريقتة في اتهام أتباعه بتهريب النفط." TP⁸³PT

ويتخذ التهريب أشكالاً مختلفة. يتهم البعض حزب الفضيلة الذي حاول جاهداً السيطرة على شركة نفط الجنوب TP⁸⁴PT بسحب وقود الديزل من منابعه، أي بسرقة ما يفترض به أن يحميه. ويقال إن آخرين يقومون بفتح ثقب في خطوط النفط. "يفتح المهربون ثقباً في الأنبوب، ويركبون عليه صنوبراً، ثم يقومون بتعبئة شاحناتهم. وينقل وقود الديزل إلى ميناء أبو فلوس حيث يباع. لقد أدى تهريب النفط في البصرة إلى نشوء مافيا عملاقة شديدة التعقيد تضم المهربين والوسطاء والمتعاونين ضمن وزارة النفط، وهكذا دواليك." TP⁸⁵PT وتلعب بعض العشائر دوراً محورياً في الوساطة. ويقول صحفي حسن الاطلاع:

"ليس شيوخ عشائر البصرة شريكاً موثقاً في مكافحة المهربين. فمعظمهم لا يظهر كبير إقبال على مساندة قوات الأمن عندما تشتبك مع المهربين. بل هم أميل إلى مساعدة الطرف الآخر. وعادةً ما يضعون حقولهم ومرابكهم في خدمة المهربين. أما من لم يتورطوا في التهريب فهم ميالون إلى البقاء خارج الأمر كله تجنباً

السابقين. مقابلات كرايسز جروب، شركة نفط الجنوب، البصرة، آذار/مارس 2005.

TP⁸¹PT - "إلى جانب القتل السياسي، شهدت البصرة سوياتٍ متزايدة من القتل على طريقة المافيا فيما يتصل بالهيمنة على تجارة تهريب النفط المربحة جداً والتي يتورط فيها على نحو متزايد جميع الفصائل السياسية الناشطة في البصرة. ومع بلايين الدولارات من النفط الذي يمر خارج نظام تصدير النفط الوطني ليصب في الأسواق السوداء داخل البلاد وخارجها، صارت ميليشيات العراق الشيعية غير قادرة على الاستغناء عن البصرة مالياً". نايتس وويليامز، ورد سابقاً، ص 31.

TP⁸²PT - مقابلة كرايسز جروب، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP⁸³PT - مقابلة كرايسز جروب مع مقاتل في جيش المهدي، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP⁸⁴PT - يؤكد كثير من المرابطين أن حزب الفضيلة يعتمد على القتل من أجل تحقيق أهدافه. "من أجل السيطرة على مؤسسات النفط في البصرة، قتل حزب الفضيلة مسؤولين كبار وملاً المناصب المهمة لأنصاره". مقابلة كرايسز جروب مع أحد الصحفيين، البصرة، آب/أغسطس 2006. أما في الفترة الأخيرة، فإن شركة نفط الجنوب تبدي علامات متزايدة على استقلاليتها عن حزب الفضيلة والمحافظ. "وخلال الأشهر القليلة الماضية، جرت منافسة بين مدير الشركة والمحافظ، إذ أثبت الأول وجوده على مسرح السياسة المحلية. فعلى سبيل المثال، قام بتمويل أعمال إصلاح الطرق. وكان ذلك على حساب شعبية المحافظ، إذ راح أهل البصرة يتساءلون عن سبب عدم قيامه بتلك المبادرة". مقابلة كرايسز جروب مع ناشط في المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، البصرة، حزيران/يونيو 2007.

TP⁸⁵PT - مقابلة كرايسز جروب مع رجل أعمال له صلة بالمهربين، البصرة، آب/أغسطس 2006.

تملك كبير وزن عندما يتعلق الأمر بالمصالح المحلية. TP⁷⁵PT وكما ذكرنا سابقاً، فقد نشأت توتراتٍ حتى بين القيادات الوطنية لمختلف الأحزاب وبين ممثليها في البصرة الذين يهتمون بمصالحهم الخاصة.

وبالنسبة، تخضع المؤسسات المحلية إلى حكم جملةٍ من الفصائل العازمة على رعاية مصالحها الأنية. وبين عشيةٍ وضحاها، دفعت النخبة السياسية الجديدة إلى مناصبٍ مسؤولةٍ لم تكن مؤهلة لها حقاً. ويقال إن بعض أبرز أعضائها لا يزيدون كثيراً عن كونهم مهربي نفط ناجحين خلال حكم نظام صدام حسين. TP⁷⁶PT واليوم يعتبر الولاء الحزبي المعيار الأكثر أهمية لترشيح الموظفين وترقيتهم.

"جوهر المشكلة في البصرة هو عدم كفاءة الإدارة وضعف القيادة العسكرية. وقد اختار المحافظ أحد ضباط الجيش السابقين لتولي رئاسة شرطة البصرة، وهو مختص في الرادار. وذلك لا لأنه قادرٌ على قيادة قوات الشرطة، بل لأسباب شخصية. وبالتالي فإن لدينا قائد شرطة يفقر إلى الخبرة والشخصية." TP⁷⁷PT

أما جهاز السلطة المحلية فهو مقسمٌ إلى إقطاعات حزبية كثيرة. فحزب الفضيلة الذي يسيطر على "قوة حماية النفط" (الوحدة المسؤولة عن تأمين الآبار والأنابيب ومصانع التكرير) هو المسؤول أساساً عن البنية التحتية للنفط. ولحزب الله الصغير وجودٌ قوي في قوة شرطة الجمارك. ومنذ بعض الوقت، صار المجلس الأعلى للثورة الإسلامية واسع النفوذ في المخابرات. وأما التيار الصدري فيهيمن الآن على قطاع كبير من قوات الشرطة المحلية، TP⁷⁸PT إلى جانب جهاز حماية المرافق (الذي يفترض أنه مسؤولٌ عن حماية البنية التحتية في المحافظة)، إضافةً إلى سلطة الموائئ. إن الموائئ نفسها تحت هيمنة جملةٍ من الجهات المتنافسة. TP⁷⁹PT وهذا التوزيع للمسؤوليات أمرٌ متحرك، وهو موضوعٌ لمنافسةٍ شديدة. TP⁸⁰PT

TP⁷⁵PT - "لا تتبع جميع الأحزاب الإسلامية سلطة آية الله العظمى علي السيستاني وغيره من آيات الله في النجف. وذلك لأن هذه الأحزاب تعتمد استراتيجيات وبرامج عمل متباينة". مقابلة كرايسز جروب مع زعيم "تأر الله"، البصرة، آذار/مارس 2007.

TP⁷⁶PT - صار المحافظ هدفاً ملاماً لاتهاماتٍ من غير أدلةٍ قوية تقول إنه على صلةٍ بالتهريب وعلى علاقةٍ بالنشاطات الإجرامية. مقابلة كرايسز جروب مع موظف في الحكومة المحلية، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP⁷⁷PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول كبير في المحافظة، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP⁷⁸PT - "يعتقد أن معظم الشرطة في البصرة لها علاقةٌ بالتيار الصدري". مقابلة كرايسز جروب مع ضابط كبير مشارك في الخطة الأمنية في المدينة، البصرة، آذار/مارس 2007.

TP⁷⁹PT - "في البصرة ثلاثة موائئ. وتسيطر عشيرة العاشور على ميناء أبو فلوس؛ وأما المجلس الأعلى فيسيطر على ميناء الخور؛ ويسيطر حزب الفضيلة على ميناء أم قصر". مقابلة كرايسز جروب مع مقاتل في جيش المهدي، البصرة، آب/أغسطس 2006. وميناء أم قصر (وهو أكبر الموائئ الثلاثة) مسرحٌ لمختلف أنواع التهريب، وخاصة السيارات. مقابلة كرايسز جروب مع أحد الصحفيين، البصرة، كانون الثاني/يناير 2007.

TP⁸⁰PT - وبالتالي، عندما كان المحافظ من المجلس الأعلى كان يسيطر على شركة نفط الجنوب التي كان الناطق باسمها أحد مقاتلي فيلق بدر

لاستهدافهم" TP⁸⁶PT

المناصب الرئيسية. وعلى نحو أكثر عمومية، يقول زعيم لأحد الأحزاب:

"إن قوات الأمن مهيأة على نحو كامل. وقد أخذ كل حزب حصته في هذه المؤسسات. وذهب معظم المناصب إلى حزب الفضيلة. وعندما سيطر هذا الحزب على المحافظة أمسك بفرصة تسمية أعضائه لشغل المناصب الرئيسية. وللأسف، فإن معظم المناصب الحساسة شغلت على أساس العضوية في أحد الأحزاب الإسلامية لا على أساس الكفاءة" TP⁹²PT

والمفارقة في الأمر هي أن جهود قوات التحالف من أجل استئصال الميليشيات أدت إلى تسريع اختراق الجيش والشرطة من قبل هذه الميليشيات. ويوضح مسؤول في المحافظة هذا الأمر بقوله: "بعد كانون الأول/ديسمبر 2006، وعندما راحت الولايات المتحدة تركز على هذا الملف وتضغط على رئيس الوزراء من أجل نزع سلاح الميليشيات، زادت الميليشيات جهودها من أجل الاندماج في قوات الأمن" TP⁹³PT. والنتيجة النهائية هي حرب بين العصابات تساندها مختلف فروع الأجهزة الأمنية المحلية:

"معظم الأحزاب الشيعية في الجنوب متورطة في نوع من أنواع العنف، بما فيها حزب الفضيلة (حزب المحافظ). وهذا يشمل أعضاء حزب الفضيلة في الشرطة العراقية، فهم متورطون في نشاطات إجرامية وحالات إعدام من غير محاكمة. أما فيما يتعلق بالمحافظ نفسه، فقد فإن ثمة خصومة بينه وبين العشائر المحلية والزعامات السياسية في عدد من المناسبات، مما أفضى إلى صدامات بين أنصار حزب الفضيلة في الشرطة وبين تلك الفصائل (وخاصة الخصومة المستمرة مع حزب/ميليشيا ثار الله) TP⁹⁴PT

شهدت جرائم القتل التي يرتكبها أشخاص يرتدون زي قوات الأمن زيادة كبيرة عام 2006، وذلك عندما بلغت الاغتيالات ذروتها، ثم صارت أمراً روتينياً (وهذه حقيقة تقسر السمعة المخيفة لهذه القوات وتؤكد إفلاتها من العقاب) TP⁹⁵PT ويقول

وويليامز، وهما يقدمان أيضاً تفاصيل حول الخطة الأمنية، ورد سابقاً، ص 32 - 33.

TP⁹²PT - مقابلة كرايسز جروب مع زعيم حزب منافس لحزب الفضيلة، البصرة، كانون الثاني/يناير 2007. "يحاول الجميع السيطرة على أجهزة الأمن من خلال ملء المناصب المهمة لحلفائهم. لقد خلق حزب الفضيلة وحدة حماية النفط أصلاً. ومن الواضح أن معظم موظفيها من أعضاء الحزب. وفي وقت سابق، كان معظم قادة أجهزة الأمن من المجلس الأعلى للثورة الإسلامية". مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في المحافظة، البصرة، كانون الثاني/يناير 2007.

TP⁹³PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في المحافظة، البصرة، آذار/مارس 2007.

TP⁹⁴PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة الدفاع البريطانية، لندن، شباط/فبراير 2007.

TP⁹⁵PT - للحصول على وصفٍ لكيفية سماح القوات البريطانية، اعتباراً من أوسط 2004، للوحدات الخاصة بالعمل رغم اختراقها الكامل من جانب فيلق

ويشير كثير من المراقبين إلى تعاون واسع بين المهربين والمسؤولين. TP⁸⁷PT وأما اختراق الأجهزة الأمنية فقد ازداد سهولة إلى حد كبير بفعل سياسة التوظيف البريطانية التي يبدو أنها تقدم الكمية على النوعية. فالمتطوعون الجدد يأتون لأن الراتب الموعود يجذبهم (وقد يكون راتباً ثانياً في بعض الحالات)، TP⁸⁸PT كما تجذبهم الأسلحة التي تدفع الحكومة ثمنها والغطاء السياسي الذي يجعلهم يفلتون من العقاب. TP⁸⁹PT ويشير أحد ضباط الأمن قائلاً:

"إن بعض الجرائم التي يرتكبها أفراد من قوات الأمن نتيجة مباشرة للإجراءات المعتمدة في تجنيد الشرطة. والواقع أنه لا توجد قواعد لاختيار المتقدمين باستثناء شرط واحد: لا يجوز أن يكون المتقدم للانضمام إلى الشرطة أو الجيش عضواً سابقاً في المخابرات أو حزب البعث أو فدائيي صدام [تشكيل نخبوي شبه عسكري تابع لصدام حسين] TP⁹⁰PT

ما تزال آثار سياسة التجنيد المترخية هذه محسوسة إلى الآن بصرف النظر عن تعهد المسؤولين العراقيين والبريطانيين بوضع حد لها. TP⁹¹PT وما زال المحافظ يعين الموالين له في

TP⁸⁶PT - مقابلة كرايسز جروب مع أحد الصحفيين، البصرة، آذار/مارس 2007.

TP⁸⁷PT - "إن عشيرة بيت العاشور تشبه المافيا. فقد اعتقلت الشرطة أحد أفرادها ثم أطلقت سراحه عند حدود المحافظة. فما معنى هذا؟ هذا يعني أن ثمة اتفاقاً بين المهربين والمحافظ". مقابلة كرايسز جروب مع مهرب ينتمي إلى جماعة منافسة، البصرة، آب/أغسطس 2006. عادةً ما تكون هذه المزاعم من غير دليل، وهي تأتي من مصادر مشكوك فيها. فالمصدر في هذه الحالة من منافسي تلك العشيرة. "إن وحدة حماية المرافق موجودة، وكذلك الشرطة، ومع ذلك فإن ثمة ترتيباً جارياً بين مختلف الأطراف. ففي الليل، تقوم الشاحنات بتفريغ النفط في القوارب ثم يباع في إيران أو في دول الخليج". مقابلة كرايسز جروب مع مقاتل من جيش المهدي، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP⁸⁸PT - يقال إن مقاتلي فيلق بدر يتلقون رواتب من الميليشيا أيضاً.

TP⁸⁹PT - "يسمح توفير الرواتب لقادة الميليشيات بالظهور بمظهر الكرم إزاء أتباعهم مع استخدام الإيرادات المالية الحكومية لكي يدفعوا رواتبهم. وخلال وقت قصير جداً، تشكلت قوات أمن معدومة التدريب والمعدات، وفيها 165% من المتطوعين المقررين الذين يتلقون رواتبهم كاملة. وكان من بين الإجراءات العاجلة ما أطلق عليه جنرال بريطاني اسم 'الاستخدام البراغماتي للميليشيات'. فعلى الرغم من الأمر الصادر عن الحكومة المؤقتة في حزيران/يونيو 2004 والقاضي باعتبار الميليشيات خارجة على القانون، استمر كل من الحكومة المحلية والتحالف بدفع الرواتب إلى العشائر الكبيرة شمال البصرة، وذلك على سبيل جزية الحماية التي لا يكاد يوجد ما يخفيها".

نايتس وويليامز، ورد سابقاً، ص 25. ومن جوانب كثيرة، تعكس هذه الممارسة ما كان يفعله النظام السابق إذ كان متلاً يدفع لقبيلة الباطل من أجل حماية حقول النفط المحلية.

TP⁹⁰PT - مقابلة كرايسز جروب مع أحد المسؤولين عن خطة البصرة الأمنية، البصرة، آذار/مارس 2007.

TP⁹¹PT - خلال زيارته إلى البصرة في 31 أيار/مايو 2006، فرض رئيس الوزراء نوري المالكي حالة الطوارئ قائلاً: "لن نسمح باستمرار نزيف البصرة بسبب وجود هذه العصابات. الأمن أولاً، وثانياً، وثالثاً. ولا يجوز أن تتعرض قوات الأمن إلى مضايقة أو ضغط من جانب القوى السياسية. يجب أن تكون هذه الأمور ممنوعة قطعاً. ولا يجوز أن يخاف ضباط الأمن أو الجندي أو الشرطي أو يرتكب بسبب التدخل السياسي". ورد لدى نايتس

إلى جماعته وكل عشيرة إلى جماعتها". TP¹⁰⁰PT

(ب) محاصرة الدولة

كان من المفترض أن تنتج العملية السياسية مؤسسات حكم قادرة على ضبط الميليشيات. وبدلاً من ذلك، تتجاهل الميليشيات تلك المؤسسات في أحسن الأحوال، وكثيراً ما تسرقها وتدخل في مواجهات معها. وبمجرد إسقاط النظام السابق تقريباً، تولت الأحزاب الإسلامية وظائف الشرطة وقامت بتوسيع صلاحياتها. ويؤكد مسؤول رفيع في التيار الصدري:

"يظن بعض الناس أن المشاركة في الانتخابات هي السبيل الوحيد للنشاط. لكننا، وحتى من غير الاضطرار إلى المشاركة، حاضرون في إدارات البصرة كلها. ومن هذه المواقع نقوم بمكافحة الحرمان وانعدام النظام على نحو مباشر. ونحن نقوم بهذا عن طريق إرشاد الناس وشرح المفاهيم الدينية. ونحن أيضاً نكافح تجار المخدرات وبائعي الخمر من خلال تدمير مخزونهم واعتقالهم وتحذيرهم، وأخيراً من خلال تسليمهم إلى الشرطة. فهل نعتقد أن العنف هو الطريق الوحيد؟ نعم. لا يستطيع الناس أن يفعلوا كل ما يريدون. من حق الإنسان أن يكون حراً في بيته، ومن حقه اختيار لباسه وتحركاته وطريقة نموه وأكله وحديثه، إلخ. لكن، وبمجرد أن يتلقى إشارة، يكون عليه أن يتصرف على نحو مختلف دلالة على الاحترام. ومن الطبيعي أن حرّيته تخضع لمزيد من القيود بمجرد أن يغادر منزله". TP¹⁰¹PT

على أن أفعال الميليشيات لا تقتصر على تجسيد جدول الأعمال الأخلاقي المحافظ. فهي تهدف أيضاً إلى التعويض عن عدم قدرة الدولة على حماية المجتمع من الهجمات الإرهابية التي ضربت البصرة عام 2006. ويقول أحد المرابطين:

"بعد تجبير جرى في السوق، قامت إحدى الميليشيات باغتيال يوسف الحسن، وهو رجل دين سني اتهم بتمويل تلك العمليات. ولو اعتقل، لطالت الإجراءات القانونية كثيراً قبل مثوله أمام القاضي. إن الميليشيات تفضل قتل الإرهابيين، حتى من غير إخطار الشرطة؛ وذلك لأن القانون غير مطبق بصرامة. وثمة ضغوط كثيرة تمارس من أجل إطلاق سراح الإرهابيين من

أحد زعماء الميليشيات: "ارتكب 80% من الاغتيالات عام 2006 على يد أشخاص يرتدون زي الشرطة ويحملون أسلحتهم ويستخدمون بطاقتهم". TP⁹⁶PT ولا يتحمل أي حزب المسؤولية عن العنف.

وتعتمد الأحزاب السياسية أيضاً على الأموال العامة غير المتعلقة بقطاع النفط. إذ يقول محللٌ محلي:

"يجري منح عقود معظم مشاريع تطوير المدينة من قبل الأحزاب التي تمسك بالمناصب الرئيسية في الحكومة المحلية. وهي تستخدمها من أجل تعزيز هيكلها الحزبية الداخلية وشبكات الحماية لديها. وعادةً ما يمنح المسؤولون العقود لأقاربهم وأتباعهم ولأشخاص مستعدين لدفع مقابل لها. وهذه العقود الضخمة تستهلك قسماً كبيراً من الموازنة ولا تكاد تنتج شيئاً في معظم الأحوال". TP⁹⁷PT

ومع أن المحافظ يتلقى معظم اللوم، سواءً من جانب المرابطين المحليين أو الأجانب، TP⁹⁸PT فمن المؤكد أن المشكلة أوسع من ذلك بكثير. TP⁹⁹PT

وعموماً، أفضت جهود الأحزاب السياسية الرامية إلى تقويض الدولة إلى تشظيها إلى عدد كبير من الإقطاعات التي لا يستطيع أي منها تنفيذ سياسة عامة فعالة. "المشكلة الرئيسية الناتجة هي غياب القدرات المؤسساتية مما يعني أن من الصعب إحداث تغيير في المحافظة عامة. فبدلاً من التعاون فيما بينها، ينظر كل حزب

بدر وحزب الفضيلة وثار الله وجيش المهدي، انظر نابيس وويليامز، ورد سابقاً، ص 29 - 30.

TP⁹⁶PT - مقابلة كرايسز جروب مع أحد كبار قادة ميليشيا ثار الله، البصرة، آب/أغسطس 2006. وتوضح الاشتباكات التي جرت عام 2006 بين ثار الله وحزب الفضيلة مدى اعتبار قوات الأمن خاضعة للتلاعب من قبل الأحزاب الساعية إلى زيادة قوتها: "بغية تبرير مهاجمة مسجد يستخدم مقرأ لقيادة ثار الله، نشر المحافظ شائعات مفادها أن السيارات المستخدمة في ارتكاب الجرائم شوهدت قرب المسجد. وأمر المحافظ الجيش والشرطة بشن هجوم على المسجد. لكن الجنرالين المسؤولين عن الجيش والشرطة، وهما ليسا من حزب الفضيلة، رفضا تنفيذ الأمر مما عرضهما إلى العقوبة لاحقاً. ثم وقع المحافظ أمراً جديداً وضع في يده المسؤولية عن العملية. وفي هذه المرة أطاع الجيش أوامره. وخلال الهجوم قتل شقيقة زعيم ثار الله مع عدد من أفراد أسرته. وقد أصبح القتال شخصياً. ومنذ ذلك الوقت، فشلت جميع جهود الوساطة. ثم تحالف ثار الله مع عشيرة بني أسد عندما راحت تهجم المحافظ انتقاماً من الاغتيال". مقابلة كرايسز جروب مع أحد الصحفيين، البصرة، آب/أغسطس 2006. ويقول البعض أن ثمة روايات أخرى تفيد بأن المجلس الأعلى للثورة الإسلامية هو من اغتال شيخ عشيرة بني أسد.

TP⁹⁷PT - مقابلة كرايسز جروب مع أستاذ جامعي، البصرة، آذار/مارس 2007. وهو يضيف: "من حيث الأساس، سرعان ما يتبين أن مشاريع إعادة البناء ليست إلا أعمال تجديد الطلاء أو أنها احتيالي محض. يمكن استيراد معدات عالية الجودة بأسعار باهظة ثم بقائها في المستودعات لأن أحداً لا يملك التدريب الكافي لاستخدامها".

TP⁹⁸PT - انظر نابيس وويليامز، ورد سابقاً، ص 23.

TP⁹⁹PT - "إن جميع من يعملون في المحافظة يفتقرون إلى الأهلية. وقد أبرز كثيرٌ منهم شهادات مزورة؛ كما أن معظمهم فاسدون. وجميع أهل البصرة يعرفون هذا، لكننا لا نملك أدلة ملموسة. ويقوم المسؤولون صلات مع شركات سرعان ما تفوز بأكثر العقود ربحية". مقابلة كرايسز جروب مع أحد الصحفيين، البصرة، كانون الثاني/يناير 2007.

TP¹⁰⁰PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة الدفاع البريطانية، لندن، شباط/فبراير 2007. "تستخدم العقود والمشاريع الزائفة للتغطية على الأموال المسروقة. وبشكل عام إذا بلغت الكلفة الحقيقية لتعبيد أحد شوارع البصرة 35 مليون دينار [نحو 30 ألف دولار] فسوف يقيم العقد بنحو 450 مليوناً [أي قرابة 360 ألف دولار]". مقابلة كرايسز جروب مع موظف في المحافظة، البصرة، آذار/مارس 2007.

TP¹⁰¹PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في التيار الصدري، البصرة، آذار/مارس 2005. "إن الأحزاب الأخرى تقبل ما يفعله التيار الصدر أيضاً. فالمجلس الأعلى مثلاً يقوم بوظائف الشرطة. فهم يعتقلون اللصوص ومن يبيعون الخمر، إلخ. وقد سلح حزب الفضيلة نفسه من أجل قتل البعثيين والإرهابيين". مقابلة كرايسز جروب مع مقاتل في جيش المهدي، البصرة، آب/أغسطس 2006.

السجون. TP¹⁰²PT

في البصرة وازدياد عنفه إلى مزيدٍ من تآكل ما بقي من صلاحيات المحافظة. فخلال عام 2006، ازدادت الاغتيالات السياسية كثيراً لتصبح دورة من القتل الانتقامي الخارج على القانون. TP¹⁰⁹PT

ومهما يكن من وجودٍ لما يشبه النظام، فإنه قبل كل شيء نتيجة توازن قوى بين الميليشيات. وقوات الأمن تتخذ موقف المتفرج في أحسن الأحوال، لكنها تكون متعاونة مع هذا الطرف أو ذاك في أسوأها. كما تستخدم آليات غير رسمية لضبط العنف. فعلى سبيل المثال، وقع عددٌ من العشائر اتفاقاً يعفي الموقعين من المسؤولية عن أعمال العنف التي يرتكبها أفرادٌ من تلك العشائر يعملون لصالح أحد الأحزاب السياسية. ويقول أحد زعماء العشائر: "إن جميع أعضاء الأحزاب السياسية الذين يرتكبون جرائم من أجل أحرابهم يفقدون حماية العشيرة تلقائياً، وذلك لأن ولاءهم الأول يكون لأحزابهم". TP¹¹⁰PT وعلى نحو أكثر عمومية، صارت الأشكال غير المؤسساتية ميداناً مفضلاً لحل النزاعات مما زاد في تقويض المؤسسات الرسمية، وأولها القضاء. ويشير أحد الصحفيين قائلاً:

"الطريقة المثلى لحل المشاكل النابعة من زيادة انعدام الأمن في البصرة، أو تخفيفها، هي ترتيب الاجتماعات بين رؤساء الأحزاب والزعماء الدينيين والرموز العشائرية. ويقول البعض إن هذا النوع من الاجتماعات يقوض عمل الحكومة لأنه يهملها. ويرى آخرون أن لها على الأقل ميزة تخفيف الصدمات المسلحة. أنا متفق مع وجهة النظر الأولى لن هذه اللقاءات تحدث على حساب أية شرعية أو مشروعية". TP¹¹¹PT

إن لهذه الاتفاقات غير الرسمية أثراً مزدوجاً: إنها تقلل من حدة العنف وتجعله محتملاً وتنظم شدته بحيث يظل ضمن حدود مقبولة. وبالتالي فهي تسمح باستمرار حكم المافيا؛ وفي الوقت عينه تؤدي بسلطة المحافظة وتضمن عدم تحول القتال بين الميليشيات إلى نوع من التدمير الذاتي. ويقول ضابطٌ بريطاني:

والمفارقة أن العملية صارت تفرض نفسها بنفسها. فالأحزاب التي تتذمر من انعدام إنفاذ القانون هي التي تتدخل من أجل الإفراج عن أعضائها السجناء. TP¹⁰³PT وبالمثل، فهي أول من يعارض الإجراءات التأديبية التي تفرض على أفراد أجهزة الأمن إذا كان هؤلاء من عناصرها. ويقول زعيم عشائري: "إذا قررت الوزارة أو المحافظة فصل أحد الضباط، فعادةً ما يظل في وظيفته إذا كان ينتمي إلى حزب نافذ أو إلى عشيرة نافذة". TP¹⁰⁴PT

وعلى العكس، يتعرض الضباط الأكفاء لخطر الفصل إذا لم ينالوا دعم الميليشيات. ويميل هذا الوضع عموماً إلى تقويض سلطة كلٍّ من الشرطة والقضاء معاً. ويقول ضابطٌ بريطاني:

"لا تستطيع الشرطة الاضطراد مع الميليشيات، فهي قوية جداً. كما أن الزعماء المحليين معرضون لمختلف أنواع الضغوط. وحتى يمكن اتخاذ إجراء ضد الميليشيات يحتاج المرء إلى قادة من خارج المدينة. أما إذا كان قائد الشرطة من البصرة فهو ببساطة لا يستطيع الإفلات من شبكة العلاقات العشائرية والاجتماعية والسياسية التي تحدد سلوكه على نحو لا فكاك منه". TP¹⁰⁵PT

ويضيف موظفٌ في المحافظة قائلاً: "إن الشرطة اليوم تخاف المواطنين، وليس العكس. فهي تخاف أن يكون المواطن منتمياً إلى أحد الأحزاب ذات النفوذ". TP¹⁰⁶PT

إن عدم قدرة السلطات المحلية على حماية المجتمع تعزز كثيراً من قوة الأحزاب والعشائر ونفوذها. ويقوم التجار ورجال الأعمال بشراء الحماية من خلال تقاسم الأرباح مع "حُماهم". TP¹⁰⁷PT

وتقوم بعض العشائر بابتزاز الشركات عندما تقوم بأعمال ضمن مناطق سيطرتها. TP¹⁰⁸PT وقد أدى تنامي الصراع على السلطة

نحاول استنجا أشخاص من العشيرة لإرضائها ولتقليل الضغط". مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في قطاع إعادة البناء، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP¹⁰⁹PT - يتحدث مدرسٌ من البصرة عن إحدى هذه الحوادث، رغم أنه لم يقدم دليلاً ملموساً يؤكد كلامه: "بعد اغتيال شيخ عشيرة السعيد، نشر حزب الفضيلة شائعاتٍ تحمل المجلس الأعلى المسؤولية. وسرعان ما قامت العشيرة بحرق مقر المجلس الأعلى. لكن ابن الشيخ المقتول الذي نجا من الهجوم تعرف على المرتكب وهو من عشيرة المنصور. ثم قامت عشيرة السعيد باعتقال ذلك الشخص وسجلت على الفيديو اعترافاً له يقر فيه بأنه يعمل لصالح حزب الفضيلة والمحافظة. ثم شنته العشيرة على إحدى الأشجار وأضرمت فيه النار أمام أعين الجميع". مقابلة كرايسز جروب مع مدرس، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP¹¹⁰PT - مقابلة كرايسز جروب مع زعيم عشائري، البصرة، آب/أغسطس 2006. "استمع إلى هذه القصة: بعد قتل أحد الباحثين، أمرت عشيرة المقتول أحد الصديقيين بدفع الدية [الفصل] كما هو شأن في قانون العشائر. وأجبر ذلك الصديقي على بيع بيته لكي يدفع 30 مليون دينار (24 ألف دولار) كما طلب منه، وذلك لأنه لم يحظ بمساعدة عشيرته". مقابلة كرايسز جروب مع أحد الصحفيين، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP¹¹¹PT - مقابلة كرايسز جروب مع أحد الصحفيين، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP¹⁰²PT - مقابلة كرايسز جروب مع أحد الصحفيين، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP¹⁰³PT - "لا نستطيع تسليم السجناء الذين ينتمون إلى جيش المهدي إلى الشرطة لأنها سوف تخلي سبيلهم". مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول بريطاني، البصرة، كانون الثاني/يناير 2007.

TP¹⁰⁴PT - مقابلة كرايسز جروب مع زعيم عشائري، البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP¹⁰⁵PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول بريطاني، البصرة، كانون الثاني/يناير 2007.

TP¹⁰⁶PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في المحافظة، البصرة، كانون الثاني/يناير 2007.

TP¹⁰⁷PT - "تمثل الشركات الكبيرة أحد مصادر التمويل الرئيسية لدى الأحزاب. فعلى سبيل المثال، يمكن أن تخشى شركة كبيرة تنظيم ثأر الله فتعطيه ما يريد. كما يدفع التجار نسبة من أرباحهم إلى الشخصيات ذات النفوذ". مقابلة كرايسز جروب مع أحد المتقنين، البصرة، كانون الثاني/يناير 2007.

TP¹⁰⁸PT - "نحن نمنح عقود إعادة البناء إلى رجال أعمال عراقيين، لكنهم غالباً ما يترددون في قبولها لأنهم يتعرضون إلى ابتزاز من جانب العشائر. وأحياناً تصر العشائر على أخذ نصف الموازنة التقديرية. وبالتالي، فإننا

الصدري لهزيمة حزب الفضيلة قبل أن يعودا إلى خصومتها. أما الميليشيات الصغيرة مثل ثار الله وحزب الله فسوف تتحالف مع هذا الطرف أو ذلك. ومع أن أحد الطرفين سيطر في النهاية (بفعل الدعم المحلي والخارجي)، فمن المستبعد أن تظل سيطرته من غير تحدٍّ. وهذا ما يؤكد استمرار وجود صيغة محلية مستمرة من التمرد.

"تعيش البصرة حالة توازن هش. يمكن للمحافظة وأجهزة السلطة المركزية أن تعمل، لكن شريطة أن تكون جزءاً من شبكة تشمل القوى الدينية والحزبية والعشائرية. وبمجرد أن تفقد هذه العلاقات توازنها يندلع العنف حتى يستعاد التوازن مجدداً، وذلك عادةً من خلال إبرام هدنة أو من خلال تدخل خارجي." TP¹¹²PT

وفي الوقت عينه، يستمر الصراع السياسي الوحشي مع استمرار هذا العنف المنظم. وتغير الأحزاب السياسية تحالفاتها باستمرار طبقاً للمصالح والحسابات المتغيرة دائماً. فعندما وجد حزب الفضيلة نفسه في صراع مرير مع القوات البريطانية سعى إلى بناء علاقات أوثق معها خلال النصف الثاني من عام 2006. TP¹¹³PT وزيجات المصلحة هذه التي يمكن لها أن تقرب بين المتحاربين في أجزاء أخرى من البلاد، نادراً ما تعيش طويلاً هنا.

وخلف واجهة ديمقراطية يمكن للنظام الجديد أن يولد عنفاً دائماً. إن كثيراً من الأحزاب تدعو اليوم، بنفاذ صبر، إلى إجراء انتخابات محلية أملاً في هزيمة حزب الفضيلة (رغم أنها لا تكاد تفعل شيئاً على المستوى الوطني من أجل تحقيق ذلك). TP¹¹⁴PT

وتداعب هذه الآمال كثيراً من أهل البصرة. TP¹¹⁵PT لكن، ومع أن من شأن انتخابات جديدة أن تعيد خلط الأوراق السياسية، فإن هذا هو كل ما سوف تنجزه. فسوف تظل مجموعة اللاعبين كما هي. ومن شبه المؤكد أن أي انتقال سياسي ضمن الإطار القائم لن يفضي إلى إنهاء النزاع العنيف. فضلاً عن ذلك، وبالنظر إلى دور الميليشيات المسلحة، يستبعد أن تكون الانتخابات حرةً ونزيهة، كما يستبعد أن تأتي بديل سياسي حقيقي. ولن يكون انسحاب القوات البريطانية عاملاً مساعداً بدوره. ومما يدعو للتشاؤم أن اثنين من زعماء العشائر قالوا لنا إنهما سيقفان المحافظ الحالي بمجرد توقف قوات التحالف عن حمايته. TP¹¹⁶PT

ولعل السيناريو الأكثر ترجيحاً هو تحالف المجلس الأعلى والنتيار

TP¹¹²PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة الدفاع البريطانية، لندن، شباط/فبراير 2007.

TP¹¹³PT - "في الأشهر الماضية ازداد تعاون المحافظ مع البريطانيين؛ والأرجح أن السبب هو إنقاذهم لحياته في آب/أغسطس". مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول بريطاني، كانون الثاني/يناير 2007.

TP¹¹⁴PT - يتحالف الصدريون مع أعضاء في فيلق بدر ضد حزب الفضيلة في البصرة، وذلك على الرغم من العداوة المريرة بين الطرفين في بغداد وغيرها. "طبقاً لمبدأ 'عدو عدوي صديقي'، صار المجلس الأعلى وحلفاؤه قريبين من التيار الصدري. وبكلمات أخرى، فإن الصدريين والمجلس الأعلى متحدون على هدف هزيمة حزب الفضيلة في انتخابات البصرة. والواقع أن ثمة مؤامرات كثيرة تحاك للتخلص من حزب الفضيلة". مقابلة كرايسز جروب مع صحفي في البصرة، كانون الثاني/يناير 2007. وفي آذار/مارس 2007، كان كلٌّ من المجلس الأعلى وثار الله يدعوان إلى انتخابات محلية سريعة. مقابلات كرايسز جروب مع مسؤولين كبار في الحزبين، البصرة، آذار/مارس 2007.

TP¹¹⁵PT - مقابلات كرايسز جروب مع عددٍ من أهل البصرة، آب/أغسطس 2006.

TP¹¹⁶PT - مقابلات كرايسز جروب مع عددٍ من زعماء العشائر، البصرة، آب/أغسطس 2006.

3 عملية سنباد

أجبرتها على خفض رؤوسها بعض الشيء؛ لكنها مازالت موجودة ويرجح أن تظل جزءاً من نسيج الحياة اليومية لزمناً ما لأنها متجذرة في المجتمع العراقي. إن الآراء العامة متنوعة. ولا تتمتع الميليشيات بتأييد شامل، لكنها تظل ناشطة في ظل قدر من التسامح الشعبي بسبب النشاطات الاجتماعية التي تقوم بها، وكذلك بسبب انعدام الثقة في قوات الأمن الرسمية، وبسبب كثرة عدد الميليشيات وقلة عدد قوات الأمن." TP¹²¹PT

ويقول المسؤولون البريطانيون بأنهم لا يعرفون كيفية التعامل مع المشكلة التي كان يفترض في عملية سنباد أن تحلها. لقد اعتبرت هذه العملية جهداً أخيراً يسبق انسحاب القوات؛ لكن وبقدر ما يستطيع المرء أن يخمن، لم يجر تفكيرٌ جدي في أية خطةٍ بديلة في حالة الفشل. وقد أشار مسؤول بريطاني خلال آخر مراحل العملية قائلاً: "لا أعتقد أن هناك خطة ثانية إذا لم تحقق عملية سنباد النجاح الذي نأمله." TP¹²²PT وبدلاً من ذلك، أوكلت مهمة تقديم الإجابة إلى العراقيين الذين يعتمد معظمهم على الجماعات المسلحة من أجل بقائهم. ويقول مسؤولٌ عسكري بريطاني: "إن تقليل أهمية الميليشيا سؤال مطروحٌ على العراقيين؛ وهو يعتمد على كيفية اختيارهم تنفيذ تشريعات من قبيل الأمر رقم 91 الصادر عن قوات التحالف [قرار أصدرته الولايات المتحدة عام 2003 وأنشأ آلية لحل الميليشيات، لكنه لم ينفذ أبداً]، أو تنفيذ غير ذلك من برامج نزع السلاح والدمج." TP¹²³PT ويشير مسؤولٌ بريطاني آخر على نحو أكثر واقعية:

"إن فيلق بدر وجيش المهدي أكبر الميليشيات، وتمثل الاشتباكات بينهما أكبر خطر على استقرار البصرة. وبالتالي، فكلاهما يحاذر التورط في نزاع يمكن أن يفلت من السيطرة. ويقوم فيلق بدر بإعادة تسمية نفسه [بصفته منظمة غير عسكرية] ويركز على دس أعضائه في قوات الأمن. وأما معظم الهجمات التي تستهدف قوات التحالف فيقوم بها أعضاء جيش المهدي 'المارق' وبعض الميليشيات الصغيرة العاملة خارج مدى السيطرة المركزية. وتمثل النشاطات الإجرامية التي تمارسها هذه الميليشيات وغيرها (مثل تار الله) خطراً أكبر على الاستقرار؛ لكن نقول من جديد إن ثمة آليات داخلية تعمل عادةً على موازنة مختلف القوى. والنتيجة شديدة الفوضى، لكنها ناجحةً عموماً.

TP¹²¹PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة الدفاع البريطانية، لندن، شباط/فبراير 2007.
TP¹²²PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول بريطاني، كانون الثاني/يناير 2007.
TP¹²³PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة الدفاع البريطانية، لندن، شباط/فبراير 2007. ومن المؤكد أن العون لن يأتي من السلطات المركزية. "رغم أن هذه الميليشيات والسياسيين المتحالفين معها يتنافسون بعنف على المستوى المحلي، فسوف يتحالفون من وقتٍ لآخر عندما يحاول متدخلٌ مركزي أو أجنبي استعادة درجة من السيطرة على أقصى الجنوب أو عندما يحاول استعادة حالة الأمن من أجل السكان. ومن حيث الجوهر، صار أقصى الجنوب 'دولة لصوص' يحرم فيها رجال المافيا السياسيون - المجرمون المسلحون جيداً كلاً من الحكومة المركزية والشعب من أية سلطة". المصدر السابق.

بين أيلول/سبتمبر 2006 وآذار/مارس 2007، نفذت القوات البريطانية عملية سنباد التي طرحتها على أنها ردٌ على مشكلة الميليشيات. ومن بين أهداف رئيسية أخرى، كان هدف العملية هو مكافحة تسلل الميليشيات إلى الأجهزة الأمنية وتحسين أداء الشرطة وتقليل العنف بين الأشقاء. وللوهلة الأولى تبدو النتائج واعدةً إلى حدٍّ ما. ومع أنه أخفى أن "التحسن الدائم يتطلب قوة شرطة أفضل بكثير"، فقد زعم مسؤول عسكري بريطاني أن "القتال الداخلي بين الفصائل والأحزاب السياسية بلغ ذروته في 2005 و2006. أما الجريمة، ومعدل القتل خاصة، التي كانت في ارتفاع فقد تراجع نوعاً ما نتيجة للعمليات الحالية." TP¹¹⁷PT

وعند إلقاء نظرةٍ أقرب، تبدو الصورة أقل تشجيعاً. فبعض البيانات البريطانية تقتصر على المصادقية. فعلى سبيل المثال، تنفي شهادات الشهود الزعم القائل إن زهاء 90% من مراكز الشرطة في المدينة والمحافظات بلغت سوية "مرضية." TP¹¹⁸PT ويشدد معظم هذه الشهادات على الهوة الكبيرة التي تفصل الجيش (الذي يعتبر أدأوه مقبولاً وإن يكن غير كامل) عن الشرطة التي يعتبر أدأوها غير كافٍ بتاتاً. وفي أوائل 2007، اعترف مسؤول بريطاني قائلاً: "شارك الجيش العراقي في عملية سنباد وأسندت إليه مهام متواضعة أنجزها على نحو مرضٍ. أما الشرطة فهي مُشكلة في البلاد كلها. وما زال العمل مستمراً على إصلاح الشرطة؛ لكنها لم تصل مرحلة يمكن معها تكليفها بأداء أي دور." TP¹¹⁹PT وخلال أيام تلك العملية التي طالبت كثيراً، تدرع ضابط عراقي مشترك مباشرةً في تنفيذ الخطة الأمنية "بضعف الشرطة والانعدام الواضح للثقة بين الشرطة والمواطنين." TP¹²⁰PT والأهم من ذلك كله أن الميليشيات لم تكد تفقد شيئاً من نفوذها. ويقول مسؤول عسكري بريطاني:

"تتنوع نشاطات الميليشيا. ولعل العمليات الأخيرة

TP¹¹⁷PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة الدفاع البريطانية، لندن، شباط/فبراير 2007.
TP¹¹⁸PT - "نتيجة عملية سنباد، نعتبر أن 92% من مراكز الشرطة في مدينة البصرة في حالة مقبولة (بعد أن كانت النسبة 9% في أيلول/سبتمبر)، في حين أن 92% من مراكز الشرطة في محافظة البصرة في حالة مرضية الآن (بعد أن كانت النسبة 38% في أيلول/سبتمبر)". وزارة الدفاع البريطانية، "الوجود العسكري للتحالف في العراق"، متوفر على الصفحة: www.mod.uk/DefenceInternet/FactSheets/OperationsFactsheets/OperationsInIraqKeyFactsFigures.htm.
TP¹¹⁹PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول بريطاني، كانون الثاني/يناير 2007. "برهن الجيش العراقي عامةً على قدرات تفوق قدرات الشرطة، رغم أنني ما زال أقول إنه يفتقر إلى القدرة النارية الثقيلة التي من شأنها أن تعطيه مزية حاسمة في مواجهة الميليشيات والعشائر. لقد تحسنت نوعية الشرطة، لكن ولاهها لا يزال موزعاً. وما زال كثيرٌ من أفرادها يمنحون ولاءهم إلى الأحزاب السياسية والعشائر، وما زال هناك عناصر متورطة في نشاطات إجرامية وطائفية. وهذه مشكلة على المدى البعيد تعكس طبيعة المجتمع العراقي عامة حيث ما تزال الروابط العائلية والعشائرية والدينية والسياسية تتقدم نسبياً على مؤسسات السلطة المركزية الجديدة." مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة الدفاع البريطانية، لندن، شباط/فبراير 2007.
TP¹²⁰PT - مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول عراقي، البصرة، آذار/مارس 2007.

4 خاتمة

عند سؤال أهل البصرة عما يتعين فعله لاستعادة الوضع الطبيعي فيها فإنهم يظهرون قدراً كبيراً مفاجئاً من الإجماع. فقبل كل شيء، يطالب أهل المدينة بأن يتمتع قادة المؤسسات بالأهلية والكفاءة، والأهم من هذا هو عدم ارتباطهم بأي حزب سياسي. وهم يطالبون أيضاً بتنظيم النشاط الحزبي وتقوية القضاء؛ وهو قطاع يعاني حتى الآن من إهمال جسيم بالمقارنة مع الشرطة والجيش. TP¹²⁷PT وباختصار، فهم يطالبون بحكم القانون.

لكن هذا الطموح، بقدر ما هو مبرر، غير متفق مع فك الارتباط التدريجي للقوات البريطانية في العراق. ففي البصرة، يبدو البريطانيون وكأنهم أقلعوا عن فكرة إقامة دولة تمارس عملها وتكون قادرة على إعادة توزيع الثروة والموارد على نحو منصف، وفرض احترام حكم القانون وإقامة ديمقراطية حقيقية خاضعة للمساءلة. لكن الوقت يمضي. فبعد أربع سنوات على سقوط نظام صدام حسين، مازال البريطانيون يواجهون هجمات دموية كثيرة. ويصعب تخيل بقائهم زمناً طويلاً. ولعل الزمن تأخر كثيراً على حل الوضع من خلال إقامة دولة تستطيع ممارسة وظائفها، حتى لو قرر التحالف إعادة الارتباط في البصرة. ومع الزمن، يمكن أن تمثل الحكومة المحلية في الجنوب دولة صغيرة فاشلة؛ وقد تتهاور الحكومة ضحية صراع لا يعرف الهوادة بين ميليشيات لا سبيل إلى تنظيمها أو ضبطها.

ومع تفكير الولايات المتحدة في خطط من أجل بغداد وبقية أنحاء البلاد، فإن النتائج تبدو واضحة. أولاً، لا يمكن أن يتمثل الرد على العنف المخيف في العراق في عملية عسكرية خيالية تهدف إلى تعزيز هيكلية سياسية قائمة وتعامل الأحزاب السياسية المهيمنة على أنها شريكة فيها. ثانياً، ليس العنف نتيجة للأحقاد الطائفية والإرهاب الذي على نمط القاعدة فقط، رغم كبر مساهمة هذين العاملين. ثالثاً، وكما يبين مثال البصرة على نحو واضح، صار العنف وسيلة معتادة للتفاعل الاجتماعي تستفيد منها الجهات الفاعلة السياسية وتتضاعف بفعل الميليشيات الساعية إلى زيادة حصتها من السلطة والموارد.

وتعلمنا البصرة أن المنافسة بين الفصائل المتصارعة سوف تشهد زيادة كبيرة بمجرد انتهاء العملية العسكرية وتضاؤل وجود قوات التحالف. وبكلمات أخرى، ليس من شأن إطالة العملية السياسية نفسها بوجود الأطراف السياسية عينها إلا أن يضمن التمزق التدريجي لما بقي من الدولة العراقية. والنتيجة الأكثر ترجيحاً هي انقسام فوضوي للبلاد إلى كتلة من الإقطاعات التي يجمعها ظاهرياً وجود قوات التحالف. والأولوية (كما بينت كرايسز جروب في تقرير سابق) هي مواجهة هيكلية السلطة التي نشأت في أعقاب غزو 2003، إضافة إلى مواجهة الأحزاب التي تهيمن عليها الآن؛ وذلك من خلال الإصرار على تسويات سياسية حقيقية وعلى إقامة نظام أكثر جمعاً لمختلف الأطراف. TP¹²⁸PT لقد أن أوان إقرار واشنطن ولندن بأن من يسمنهم شركاءهم

ومن حيث الأساس، تنشأ المشاكل الكبرى بسبب المنافسة بين العراقيين، وعادةً ما لا يكون غيرهم قادراً على حلها. ومن المستبعد أن نرى قوات أمن مركزية تملك من القوة ما يسمح لها بالسيطرة الكاملة على الأرض في مستقبل قريب. وبالتالي فإن التسويات والصفقات بين العراقيين هي أفضل طريقة متاحة؛ وهذا ما يجري فعلاً. TP¹²⁴PT

وبطبيعة الحال، فإن هذا الوضع يفتح الباب أمام الفساد الشديد ويُلغى أي شبهة مع حالة وجود سلطة الدولة. ورغم القائمة الطويلة من المشاريع التي نفذت بعد عملية سنباد، TP¹²⁵PT فإن أثرها الملموس يبدو قليلاً جداً. ونتيجة الحساب مخيبة جداً للأمل بالنظر إلى مدى حاجة سكان البصرة إليها بعد سنوات من الحرب وإهمال الحكومة المركزية لهم. TP¹²⁶PT

TP¹²⁴PT - المصدر السابق.TP¹²⁵PT - انظر:

www.mod.uk/DefenceInternet/FactSheets/Operations Factsheets/OperationsInIraqKeyFactsFigures.htm

TP¹²⁶PT - "تظل الخدمات الأساسية مشكلة. لقد استثمرت أموال في البنية التحتية المدنية، لكن الفساد والبطالة المؤسساتية يجعلانها غير قادرة دائماً على إعطاء النتائج المرجوة. لقد ازداد توليد الطاقة الكهربائية، لكن ثمة مشكلات منهجية كبرى ناجمة عن سنوات من ضعف الاستثمار (إضافة إلى الزيادة الهائلة في الطلب)، وهذا ما يعني اضطراباً في ساعات توفر الطاقة الكهربائية. والمشكلة الأخرى هي انعدام الأمن إذ يصعب في ظل هذا الوضع تنفيذ مشاريع إعادة بناء مستدامة بعيدة المدى". مقابلة كرايسز جروب مع مسؤول في وزارة الدفاع البريطانية، لندن، شباط/فبراير 2007.TP¹²⁷PT - مقابلات كرايسز جروب، البصرة، آذار/مارس 2007.TP¹²⁸PT - انظر تقرير الشرق الأوسط رقم 60، كرايسز جروب، "بعد بيكر - هاملتون: ما العمل في العراق"، 19 كانون الأول/ديسمبر 2006.

دمشق/عمان/بروكسل، 25 حزيران/يونيو 2007

العراقيين بعيدون جداً عن بناء دولة جديدة، بل هم يعملون على تمزيق هذه الدولة من غير هواده.

الملحق أ خارطة العراق

